مبادرة

القراءة بالمجان

الكتاب: للورد بقية من رائحة/ رواية

الكاتب: حنان العشماوي

رقم الإيداع: 19402/ 2018

ISBN: 978-977-800-019-1

تصميم الغلاف: محمد عبد القوي مصيلحي

تدقيق لغوي- تنسيق داخلي:

www.sekoon.com

دار ليان للنشر والتوزيع

مدير النشر: فتحي المزين: 01282288056

Email: layanpub@gmail.com

ليان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

حنان العشماوي

للورد بقية من رائحة

رواية

لبان
للنشر
والتوزيع

شكر خاص

للفنان الجميل مصور الغلاف

الفنان "عصام الصابري"..

لك يا أخي المهاجر أسمى آيات الشكر والعرفان

إليك ربي أهدي رزقي من فيض كرمك ما لم أتخيّل بلوغه في أجمل أحلامي..

فالحمد لله رب العالمين

إلى الدنيا بتقلباتها.. غضبتها ورضاها.. وفِي النهاية كل الأمور تسير إلى الخير..

إليك يا مَن وهبَني من نفسِه وذاته ِما لم أكن أدرك يومًا.. كم أنا منك وأنت منِّي.. إلى والدي..

إلى أولادي: عمرو وحبيبة.. يا أجمل دافع وهدف، فلنخطوا للأمام معًا كلٌ في دربه..

إلى أخوات الدم وأخوات الروح أصدقائي مِن كل الدنيا، دونكم أنتم ما كنت أنا..

معاً نحن أقوى دائمًا وأبدًا

إلى نفسي..

لك حبي وتقديرى على مثابرتك ودعمك دون كللٍ

ما يزال الطريق طويلاً نسيره معًا تدفع إحدانا الأخرى نحو آمالٍ لا نهائية

مقدمة الرواية

في حياة كُلٍّ منا منعطفات وحنايا ربما يلتقي في إحداها بفصل من قصة تشابه حادثة مرت من خلاله وربما تكون بضع من الحياة نفسها.

تأخذنا الأحداث فنعيش مع أبطالها، نحيا آلامهم وأفراحهم، دون أن نشعر نجد أننا اخترقنا الخط الفاصل بين الحقيقة والخيال.

في قصتي تناوبتُ الأدوار، فعشتُ في ثوب بطلتها دهرًا من الزمان، رأيت الدنيا بعينها وكنت عينًا عليها في ذات الوقت..

أسير معها - وربما بداخلها - طريقًا طويلًا بطول العمر، تمتدُّ على جانبيه صورٌ متعددة متشابهة أحيانًا ومختلفة أحيانًا أخرى..

كأنها نسيج من نسيجي.. تزرف عيني الدمع حين تتجمد الدمعة في مقلتيها، ويرقص قلبي طربًا لمجرد ابتسامة مِن فِيها..

عشت حياتها حتى لم أعد أعرف أينَ هي وأينَ أنا منها.

سنبدأ الحكاية، وسأترك لك عزيزي القارئ معرفة الخط الفاصل بين الحقيقة والخيال.

باسمِكَ اللَّهم وبحمد نعمتك أبداً ما أنا بصدده وإلى آخر الطريق..

الحنين

أضاءت إشارة ربط حزام المقعد، وصوت قائد الطائرة ينوِّه بالوصول إلى أرض الوطن وبوجوب إعادة الكرسي إلى الوضع السليم وربط حزام المقعد استعدادًا للهبوط.

أفاقت رحمة من غفوتها واعتدلت، وألقت بنظرها إلى خارج الطائرة حيث الظلام الداكن ولسان حالها يقول: «طال الفراق يا وطني، تُرى هل آنَ الأوان؟

«كم أوحشتني أرضك الطيبة، ونسمات هوائك العليلة لحظات الصباح الباكر في شُرفتي بين أزهاري ونباتاتي الجميلة.. وقتَ الأصيل ممتزجًا بصوت الست، ورشفاتٍ من الشاي الساخن اللذيذ المحلى برحيق النعناع الأخضر..

وكوب الكاكاو الساخن في برد الشتاء حين يختلط دخان سخونته بالزفير ويكسو زجاج النافذة ضبابٌ، تَرسُم أناملها عليه قلوبًا وأسهم وحروفًا.. نظرة إلى نيلك الساحر وقت الغروب.»

بدأت أنوار قاهرة المعز تبدو كنجوم متلألئة في صفحة أبنوسية لا متناهية.. منظر خلاب أُخذِتَ به..

لمعة اشتياق وفرحة تلألأت أشبه بفرحة طفل صغير لحظة رؤيته لأمه بعد غيابٍ طويلٍ..

«لم أتخيل يومًا الرحيل عنك، ولم أتوقع العودة قط!»

كانت الأفكار تتصارع بداخلها.

نظرة فرح إلى أرض الوطن الذي هجرته منذ زمن لتجد هويتها الضائعة.

تعيد بناء رحمة جديدة، كيان جديد قوي يعلم ما يريد ويرى العالم بأكمله مسرحًا لتحقيق أحلامه.

عادت بذاكرتها إلى عدة أسابيع ماضية، يوم تلقت خطابًا يخبرها بوجود أمر إزالة للعقار الذي كان يومًا منزلها، وضرورة عودتها لإنهاء المعاملات الخاصة والتصرف في شأن المنقولات بداخل الشقة قبيل تنفيذ أمر الإزالة.

اجتاحتها مشاعر مختلطة: حزن على مكان ظلَّ شاهدًا على مَن كانوا يومًا.. حكاياتٍ لا تنتهي.. ضحكات الصغار.. ألم وشجن بداخل أروقةٍ شهدت حيوات مختلفة لكُلِّ مَن ضمتهم هذه الجدرانُ يومًا.

جال بخاطرها: «لقد رحل الجميع؛ فليرحل المكان ليلحق بأصحابه!» لكنها سرعان ما أبعدَت هذا الخاطر.

إنَّ لها قلبًا حفرته في أحد الأركان، ودمعة خبأتها بداخل واحدة من المرايا.. ضحكات اختزنتها حنايا المكان.

وإن كان رحيل المكان هو النهاية..

فلا أقل من الوداع.

عقدت أمرها على العودة لإلقاء النظرة الأخيرة، وربما لحظات من الصفح عمَّا كانَ ودارَ.

أفاقت من شطحات الذهن على وجه المضيفة الباسم: «حضرتك محتاجة مساعدة؟» التفتت حولها، وجدت نفسها وحيدة وآخر الركاب على وشك الخروج من الطائرة.

ردَّت بابتسامة: «الظاهر سرحت ما أخدتش بالي»، وهمَّت بالقيام بصعوبة من أثر الجلوس لمدة طويلة. ودَّعتها المضيفة بابتسامة ناعمة وغادرت.

خارج بوابات صالة الوصول وقفت تنظر، وكأنما تسترجع لحظة خلَّدتها في الذاكرة يوم أن قررت الرحيل بلا عودة.

«مَن مِنَّا يدري بالمقدَّر له؟» هكذا همست لها النَّفسُ.

ها هي تعود وحيدة، فلم يكن هناك مودع ولا يوجد من أحد ليرحب.

أشارت إلى تاكسي، سألها السائق: «أين الحقائب؟» أشارت إلى حقيبة صغيرة، فنظر لها متعجبًا ووضع الحقيبة في الخلف واتخذ مقعده.

«الحمد لله على السلامة، على فين بإذن الله؟»

«العجوزة من فضلك.»

كان الوقت متأخرًا والشوارع شبه خالية، هواء الشتاء البارد يتصدر الموقف، وبالرغم من برودة الجو فتحت رحمة الشباك مما أثار حفيظة

السائق ولكنه صمت، وهي لم تعر لضيقه أيَّ التفاتة.. إنها ترغب أن يتخلل وجهها الهواء البارد، لربما يهدِّئ من حرارة أعصابها وحِدَّة القلق بداخلها.

«آهٍ يا رحمة.. ألم تكن تلك الصفحة قد أُغلقت إلى الأبد!»

سارت السيارة تنهب الأرض نهبًا وكأن السائق يرغب في الوصول إلى وجهته بأقصى سرعة للتخلص من الراكبة التي جمدت أطرافه بالهواء البارد بلا أدنى إحساس.

اخترقت السيارة شوارع حي العجوزة الهادئ في هذه الساعة من الليل، أخيرًا وصلت، وقفت السيارة أمام عمارة سكنية كانت في الزمن البعيد درة عمارات الحي، وبعد غزو الأبراج السكنية بدت ككهلٍ محنيِّ الظهر يجاهد كي يستطيع الثَّبَات واقفًا.

نزل السائق وأخرج الحقيبة وسألها: «تحبي حضرتك أنادي البواب يساعدك؟»

ردَّت بهدوءٍ: «لا شكرًا»، وأنقدته الأجرة.

حملت حقيبتها الصغيرة ودلفت إلى الداخل. لم يتغير مدخل العمارة عما كان عليه، أضاف الزمن عليه عتمة ورطوبة زادتا من كآبته، وتكاثرت واتسعت الشروخ الباقية مذ غادرته.

صعدت إلى الدور الثالث بهدوءٍ، على ضوء كشاف الموبايل؛ إذ وجدت إضاءة السلم معطلة.

أخرجت المفتاح من حقيبتها، عالجت القفل بصعوبة، غالبًا نتيجة للصدأ.

أخيرًا فتحت الباب.. دفعَتْهُ ببعض القوة حيث تزاحمت خلفه كمية من الخطابات التي لم يتسلّمها أحدٌ وأوراق ملقاة: إعلانات عن مطاعم و "دراي كلين" وما شابه.

بالطبع لم يكن هناك تيارٌ كهربائي في المكان.

سارت تتلمس طريقها عبر الكشاف إلى أن وصلت إلى نافذة الصالون ففتحتها على مصراعيها ليتسرب نور الشارع إلى داخل المكان، بدأت تتحسس اتجاهاتها بداخل الغرف كلها، تفتح النوافذ ليندفع تيار الهواء البارد مع بصيص ضوء. وفي غرفة النوم الرئيسية رفعت الأغطية الملقاة على الفراش وألقت بجسدها المتعب لا مبالية بالأتربة الكثيفة التي تتطاير مع تيار الهواء، واستسلمت لنومٍ عميقٍ.

أفاقت فزعةً على صوت ارتطام الشيش نتيجة الريح.. «أين أنا!!»

لوهلة لم تتعرف على المكان، أدارت رأسها حولها، عادت إليها ذكريات الليلة الماضية، هدأ روعها، مسحت النوم عن العيون، واعتدلت في جلستها.

سرعان ما اكتشفت أنها نامت بثيابها وسط أكوامٍ من الغبار رأتها بوضوحٍ مع ضوء النهار الرمادي بعد أن هجرته الشمس لتنأى بنفسها وأشعتها الدافئة من وحشة البرودة.

نظرت في ساعتها. يا الله، لقد ناهزت الحادية عشرة. أحسَّتْ بقرصة الجوع؛ فأخرجت من الحقيبة قطعة من الشوكولاتة تحتفظ بها دائمًا تحسبًا لهبوط نسبة السكر.

التهمتها التهامًا.

أدارت وجهها في أنحاء الغرفة. فاجأها وجهها في المرآة، فجفلت..

فقد كان شعرها أشعث يثير الضحك.. ابتسمت لنفسها، ثم قامت بتؤدة للحمَّام، وجدت محبس المياه حيث تذكَّرته، أدارت المقبض وفتحت الصنبور فانساب الماء بلون الطين فترةً متدرجًا إلى أن وصل إلى اللون الطبيعي، فنثرت الماء البارد على الوجه المرهق. كانت في هذه اللحظة تتمنى أن تنال الدوش الصباحي الدافئ لتخرج وتجد خادمتها أعدَّت إفطار الصباح، ولكن أين هي الآن وهذا الحلم!

جالت في البيت تتفحص أركانه وقد نخر السوس أخشابه كما نخر عظام الراحلين من قبل.

سألت نفسها: «لمَ جئت؟ أكنت تتوقعين شيئًا غير هذا؟ ربما تخيلتِ ابتسامة أحباء مرحبة أو رائحة شهية لأكل أمي، رائحة البطاطا المشوية تصدر من الفرن تملأ البيت فتطرد لسع البرودة من أرجائه..»

تخيلت ضحكات الصغار، وصيحات الحرب، وكعكات الميلاد والشموع.. فرح وبكاء..

ترقرقت الدموع وانسابت بهدوءٍ تنعي ما كان.

سارت تفتح أبواب الغرف واحدًا تلو الآخر، تلتقط همساتها ترحِّب بعودة الغائبة من الزمن البعيد.

أخذت تمسح بيديها على الأثاث علها تمس مواضع استند إليها الأحبة يومًا.

طافت بالبيت عدة مرات إلا تلك الغرفة.. أبقتها للنهاية.. كأنما أرادت الاختلاء بها عن العالم وما حولها من أنقاضِ حياةٍ.

اقتربت ووضعت يدها على أُكرَة الباب وهي تتمتم كما هي عادتها: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.»

عادة تعوَّدتها من الجدة الحبيبة التي عاصرت طفولتها المبكرة.

كانت دائمًا ما تقول:

«لازم يا رحمة نستأذن قبل ما نخش المكان»، ابتسامة تعلو الوجه وهي تتذكَّر: «يا تيتة هو فيه حد جُوَّه عشان نستأذن منه؟»

ترد الجدة: «يووووه ده فيه ياما، بس لما نستأذن ونسلِّم يسمحوا ويبعدوا ويسيبولنا المكان مبسوطين.»

واظبت على الفعل حتى يظَلَّ من بالداخل دائمًا "مبسوطين" وحتى تُبقي على الأثر من الجدة الطيبة.

كانت أوصالها ترتجف دون سبب واضح..

تتساءل بقلب طفلة: «تُرى ما الذي ينتظرني وراء الباب المغلَق؟»

فُتح الباب مُصدِرًا صوتًا يشبه الصافرة نتيجة صدأ المفصلات..

وحين أصبحت بالداخل اقتربت من الشباك، فتحت الشيش الخشبي الهالك لتطل على...

يا الله! أين الشجرات التي كانت تلقي الظلال لتمدها إلى داخل الغرفة؟

كانت النافذة تطل على خلفية عمارة سكنية، أو بالأحرى برج سكني يبدو كمكعبات الأطفال، أملس، بنوافذ ألوميتال لامعة.

ابتأست من قلبها.. حتى أجمل ذكرى للغرفة حُرِمت منها، نزع الزمان منها شجرتها وأوراقها الوارفة.

حانت منها التفاتة إلى غرفتها الصغيرة، اعتصر الحزن قلبها.. «ها أنا وقد قاربت على الستين أبكي أطلالًا كانت فيما مضى قلعتي وقصري المنيف، أو هكذا عشتها.»

أزاحت قطع المفروشات الملقاة على السرير والمكتب وحتى المرآة، أرادت أن تلقي عليها النظرة الأخيرة كما رأتها وعاشت بها يومًا: الجدران البيضاء الساطعة، والدولاب والسرير والكومودينو اللاكيه الأبيض المزيَّن بأزهار محفورة ملونة بداخل الخشب، الستائر البيضاء المشغولة.

المكتب وعليه الكُتب مبعثرة، والأدراج نصف مفتوحة تختفي بها الروايات لإحسان عبد القدوس ويوسف السباعي.

كوب شفاف من الزجاج بداخله الوردة الذابلة حتى تحل أخرى نضرة محلها.

نفضت كرسيّ المكتب ووضعته على الأرض إذ وضعه مَن وضعَهُ مقلوبًا فوق السرير ليحميه من عبث القوارض والتهامها لأخشابه.

جلست بحذرٍ خوفًا من تهاوي الكُرسيِّ تحتها، بدأت بفتح الأدراج واحدًا تلو الآخر غير عابئة بالغبار والأتربة الكثيفة على المكتب وبداخل الأدراج.

وجدت نفسها بعبثٍ طفوليٍّ تكتب «رحمة» بأناملها فوق طبقة التراب الناعمة.

ولسان الحال يهمس: «آه من الدنيا.. أين أنتِ الآن يا فتاة!»

بدأت تفرغ الأدراج مما بها.

تقلب أوراق الروايات، أخرجت منها بتلات جافة لأوراق ورد جاف تبعثر بين أناملها.

أقلام رصاص خشبية، صور قديمة من كاميرا بولارويد تلاشت ملامح مَن بها بفعل الزمن والغبار.

أمسكت بكشكول عرفَتْهُ من فورها رغم كل هذا الزمان، لم تغب صورته عن ذاكرتها..

حينها كانت الفتيات يجمعن قصاصات ورقية لأشعار وأزجال، وبعض صور نجوم الفن المفضلين، وبالداخل تُكتب المذكرات التي يجب ألا يقرأها مخلوق، ربما صديقة مقربة للغاية ودون ذلك لا أحد يُسمح له بالاطلاع عليه.

أمسكت به بمنتهى الحذر، فقد كان الغلاف ضعيفًا والورق مصفرًّا مهترئًا.

أول صفحة رُسمَتْ عليها بالجاف الأزرق شجرةٌ ممتدة الغصون والأوراق، تتدلى من الفروع قلوب مرسومة بالجاف الأحمر بداخلها اسمها واسم صديقتها "صافي"، الجارة التي كانت تسكن بالدور الأرضي.

منذ الطفولة كانتا كوجهي العملة لا تفترقان أبدًا إلا ساعة النوم.

وحتى بعد الرحيل عن الوطن كانت كل منهما تنتظر الإجازة الصيفية كي يجتمع الشمل وتسري الضحكات ويدور الهمس عن الخافي من الأمور؛ فقد كانت صافي فتاة مرحة، جريئة، ومنطلقة. أما رحمة فبفعل المجتمع المنغلق على نفسه الذي تحيا به لم تكن لديها أخبارٌ أكثر من «قرأت الكتاب الفلاني» أو «شُفت الفيلم العلاني.»

وفي إحدى الإجازات قدَّمت صافي إلى رحمة دبلة فضة كتبت عليها اسمها وارتدت هي الأخرى الدبلة الأخرى حُفر بداخلها اسم رحمة، وكشكول المذكرات، وبلغة العالمة ببواطن الأمور أكدت عليها أن تكتب يومياتها حتى لا تنسى من الأمور تفصيلةً مُهِمَّةً. وبرغم اعتراض الوالدين على موضوع الدبلة لم تخلعها رحمة إلا حين رحلت عائدة بعيدًا عن صديقتها الحبيبة واكتفت بأن نقلتها إلى قلادة معلقة حول الرقبة حتى لا تثير حفيظة الوالد.

احتفظت رحمة بالكشكول الغالي غلوّ صديقة عمرها دون أن تستخدمه، فلم تجد في حياتها ما يستحق التدوين.

حين عادت في إجازة الثانوية العامة للتقديم في الجامعة فوجئت بأن صافي أنهت الدراسة الثانوية ثم تزوجت ابن عمها وغادرت إلى "سمنود" محافظة الغربية.

كان ذلك أول أحزانها وأشدها.. كيف لها أن تفعل بها ذلك؟ ألم يتفقا معًا على أن تجمعهما أسوار الجامعة بعد أن فرقتهما سنوات الغربة والأسر؟

بأصابع حذرة مرتعشة بدأت تقلب في الأوراق، وقرأت:

«أسير طريقًا بطول العمر، تمتد على جانبيه صورٌ من حياتي متعددة الفصول والقصص، تناثرت بها الأحداث وتقلبات المواقف، تعلمت فيها درسي من الدنيا، وخططتها كي لا أنسى منها أشد علاماتها. وها أنا أبدأ فيك أيها الكشكول العزيز أولى ذكرياتي إلى ما قد تجرني إليه الأيام.

«بِسْم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين.

«منذ.. اندفاع الهواء شاقًّا رئتي كانت أولى الصرخات، كانت الدمعات والابتسامات..

البداية

أنا رحمة

باكورة إنتاج أبي وأمي.

عملاقي كان -وما زال- برغم رحيله إلى عالم السلام والبراح الواسع.

وأمي تلك المرأة القوية، «شيالة الحمول» كما نقولها بلغتنا العامية، عاشت عمرًا طويلًا في كفاح مع كل متغيرات الحياة، بدءًا من الرحيل من الوطن الأم إلى بلاد النفط والحفاظ على أسرة قوامها ثلاثة أطفال: فتاتان، وصبي جاء إلى الدنيا مع آخر الأوراق في شجرة حياة الأم ليكمل المسير بدونها.

أنا رحمة، الطالبة الخجولة متعثرة الحروف إذا ما فاجأها موقف ما يستدعي الرد عن النفس.

الجادة جدية الأب حد التزمت.

عشت الدنيا وأنا أراني النموذج المثالي للفتاة كما يجب أن تكون.

مطيعة مؤدبة، تسعى جاهدة للحصول على ملمح الفخر في عيون من حولها.

وقد كنتُ.

ما عرفت قدرَ خطئي إلا حين واجهتُ نفسي بنفسي.

الأدب كان حيلةً، والاجتهاد كان معاناةً مستميتة للحصول على رضا من حولي.

الطاعة كانت خوفًا من العقاب، وإن لم يتعدَّ نظرة لوم نافذة للصدر كفيلة بإسقاط الروح في غياهب الجسد.

عشت حياة مشوشة..

تحدوني أفكار متضاربة عن ماهية الحياة والعلاقات بين البشر.

اختزنتها بداخلي وبدأت أحيا بها، فأصيب مرة وأُخطئ مرات.

لم أختر ما اختبرته من الحياة بإرادتي الكاملة، بل وهمي الكبير هو من رسم الطريق إلى منتهاه.

كم سعيت جاهدة إلى اليد التي تربِّت وتحنو.

كنتُ أعلم كم هي حانية أمي تحت قناع من الجدية والقوة، كنت أرى حنوها أثناء مرض أيٍّ منا.

أذكر أني لمحتها يومًا وأنا لم أتجاوز السادسة وقد كانت الحمى تتلاعب بي،

رأيتها في انعكاس مرآة غرفتها - المقدسة الممنوعة علينا نحن صغارها - وعلى بصيص ضوء سهراية بسيط..

أجل، لمحت تلك الدمعة تنساب هلعًا على المحمومة.

كم أسعدتني رؤية تلك السخينة تنساب خوفًا عليَّ!

المرض هو ما أكسبني القوة، هو ما دفعها لوضعي بفراشها، ذاك المكان المقدس الذي لا يدنو منه سواها.

ما أجملك أيها المرض، يا من جعلت لي الحظوة عند أمي!

أدعوك يا ربّ ألا تحرمني من هذا المرض حتى أظل في فراشها أرى لوعتها على طفلتها.

تُرى هل كانت أبواب السماء مشرعة في هذه اللحظة فتمَّت الاستجابة لرجاء غريرة لا تدري من هول أمنيتها شيئًا؟

أحيانًا أتساءل..

إنه القدر متأكدة، لكنها تساؤلات طفلة في جسد امرأة.

بداية الرحلة

ها أنا ذَا أخطو خارج القفص. كم كانت الفرحة تصول وتجول في الجسد الصغير والروح الحبيسة!

أخيرًا تحررت من السيطرة.

أنا الآن على أعتاب المرحلة الجامعية.

على الرأس تاج الفخار متفوقة بنتيجة تخولها لأحسن كليات البلد.

وعلى الرغم من أنها لم تكن رغبتي ولا أمنيتي..

إلا أنه قد سبق لي القول أنني تلك الفتاة المطيعة المهذبة التي لا تملك حق الرفض، ربما خوفًا أو أدبًا لا أدري.

لكنني انسقت لإرادة أكبر رسمت لي الطريق.

كعصفور يعافر للخروج من بيضته كنت أنا..

بكل مضمون الكلمة والوصف.

أشعر بالسعادة تتقاذف القلب بين راحتيها..

مذ وطأت قدماي أرض مطار القاهرة..

هواء غير الهواء، شوارع تختلف عن سواها..

حتى أعمدة الإنارة بضوئها "النيون" الأبيض تختلف عن تلك الصفراء المتلحفة بالهواء الساخن المعبأ بذرات التراب الصحراوي المصفرة.

أجل، إنه الوطن.

الأرض المقدسة في خيالي، عُدت إليها لأُبعث للحياة مرة أخرى. لقد أزحت سقف تابوتي ومزقت كفني، فلتبدأ رئتاي بالعمل.

تنفسي أيتها الرئتان بحق سنوات الاختناق الكئيبة.

هلُمي بربك.

فلنحيا من جديد.

التفَّ حولي الأهل، أصدقاء الطفولة..

الكل فخور بالنجيبة القادمة من الغربة دون أهلها.

بقليلٍ من المجهود تمكنت من الالتحاق بسكن الجامعة الأمريكية للطالبات المغتربات في "جاردن سيتي" آن ذاك.

وتمَّ قبولي في الكلية.

صرحٌ جميلٌ يشي بالعراقة والقِدم.

يفوح بعطر التفوق والشخصيات المتميزة.

إنه البراح.

أفواج من الطلبة والطالبات يخفون إليك للتعارف وعرض معنى كلمة أسرة ومفهومها الجامعي.

بمنتهى السعادة كان الاندماج.

فتاة وحيدة وافدة، وآه مما يحدث مع الوافدين الجدد من استغلال، ربما لأنهم قدموا من بيئة مغلقة مغلفة بأمان الأسرة وحماية قطبيها إلى عالم مفتوح.

خبرات مختلفة، طباع تُخفي أكثر مما تُظهر من نفوس مريضة!

لم يكن هذا هو ما تخيلته عن البراح، إنما هو قفص حديدي أكبر تتجول بداخله النعاج مع الوحوش دون ساتر.

مَن يفوز بالطريدة فهو أستاذ تُرفع له القبعة.

ومن تلزم طريقها فهي تلك المعقدة التي لا تدري من أمر الدنيا شيئًا.

كم كانت البدايات جميلة، وكم كانت الحقيقة مزعجة!

طافت قدماي البراح وتجوَّلتُ، لم يخلُ الأمر يومًا من كلمات إعجاب بريئة ألقت في القلب المغلق بأقفالٍ المخاوفَ والرعب من نصائح تُتلى على الأذن بُكرة وعشيًّا، وبعضَ السعادة، وخفقانًا مدويًا بداخل النفس.

جميل هو البراح ولكن!!!

موحشة هي الوحدة..

أجل، وأي وحدة هي!

مواعيد العودة إلى السكن محددة ولا بُدَّ من الالتزام وإلا..

أعود إلى الغرفة الصغيرة بضوئها الخافت الخانق.

الصداقات في هذا المكان غير مستحبة، فلا أحد يعلم عن الآخر ما يجعله يطمئن له.

ينتهي اليوم ليبدأ آخر، تدور الأيام في فلكها وهكذا دواليك.

إلى أن كان ذلك اليوم.

خرجتُ من السكن في انتظار الـ "ميني باص"، وأثناء السير طرق سمعي صوت فرملة سيارة مسرعة ولم أدرِ بعدها شيئًا..

صدفة

حادثُ سيارةٍ أطاح براكب دراجة والذي بدوره أطاح بي على الرصيف حيث ارتطمت رأسي بقوة لم أعِ شيئًا بعدها.

هكذا قالوا لي حين أفقت.

«كم بقيتُ غائبةً عن الوعي؟»

«بضع ساعات»، كان الجواب..

صوت رجولي هادئ.

الألم في رأسي يمزقه ولا أكاد أرى أمامي.

عاود الصوت حديثه:

«ألف الحمد لله على السلامة، إحنا اتطمنا عليكي وعملنا الأشعات اللازمة..كله بحمد الله سليم، بس فيه كدمة في الرأس هي اللي غابت بيكي عن الوعي.. والدكتور كان هنا من فترة وطمِّنا."

رحمة: «الصداع جامد مش قادرة أفتح عيني.»

الصوت: «الدكتور قال إن ده هيحصل طبيعي من قوة الخبطة.. أنا هسيبِك ترتاحي وارجع بعد شوية.. ممكن تليفون أي حد من الأهل عشان نطمنهم عليكي؟»

رحمة: «لا مش عاوزة أقلق حد، أنا بس لازم أرجع السكن قبل ما يقفلوا الباب.»

وبدا عليها الإرهاق الشديد أثناء الحديث.

الصوت: «ماتقلقيش، كل حاجة هتبقى تمام.»

سكون في المكان لفترة ليست بالقصيرة راحت فيها رحمة في سبات تام.

صوت دقات خفيفة على الباب فتحت على أثرها عينيها..

متلفتة حولها: «أين أنا»، إلى أن تذكرت ما حدث.

أجابت: «اتفضل.»

دخل إلى الغرفة.. رأته بوضوح للمرة الأولى، وإن دلها الصوت عن شخصه الذي لا تعرفه..

إنه ذلك الصوت العميق الذي طرق أذنيها منذ ساعات.

متوسط الطول، مع صلع خفيف، أبيض الوجه، ضيق العينين بحواجب كثيفة حادة.

يبدو في منتصف العقد الثالث أو يزيد.

اقترب من السرير مادًّا يده.

«مدحت سعد، خبير سياحي.»

امتدت يدها بالسلام قائلة:

«رحمة فؤاد الشرقاوي.»

سحب كرسيًّا وجلس بالقرب منها.

«أنا عاوز أشرحلك إن الغلط مش مني.

الولد اللي كان راكب العجلة كان شايل مشنة عيش فوق راسه وطالع من شارع جانبي مش مستني حتى يشوف العربيات اللي ماشية، ولما خبط-» قاطعَتْهُ: «الحمد لله ربنا ستر محصلش حاجة وجت سليمة.

«أنا بس لازم أمشي دلوقتي أرجع السكن قبل ما أتأخر وحد يقلق يكلموا والدي ووالدتي يقلقوهم.»

مدحت: «إنتي بتقولي سكن، إنتي مش من القاهرة؟»

رحمة: «أنا من القاهرة بس بابا وماما وإخواتي عايشين بَرَّه مصر وأنا دخلت الجامعة هنا وقاعدة في سكن الجامعة الأمريكية للمغتربات في جاردن سيتي.»

مدحت: «متخافيش، إنتي بس قوليلي الأول إنتي حاسة أحسن؟ مافيش حاجة بتِئلِمك أو تعب من أي نوع؟»

رحمة: «لا بقيت كويسة خالص ولازم أمشي دلوقتي حالًا.»

استشعر هو مدى قلقها فهدَّأ من روعها:

«هقوم أخلص إجراءات المستشفى على ما تجهزي إنتي وأوصَّلك لحد المكان اللي عاوزة تروحيه.»

أجابت بسرعة: «لأ لأ.. أنا هاخد تاكسي وأرجع على طول. أنا كويسة جدًّا.»

مدحت: «لازم أوصلك، محدش عارف ممكن تتعبي تاني وإنتي راكبة التاكسي ومش هتعرفي تتصرفي. أنا قصدي الأمان بس.»

انتظرت رحمة في الغرفة إلى أن وصل.

مدحت: «يللا بينا، أنا جبت العربية قُدَّام بوابة المستشفى عشان ماتمشيش كتير.»

خرجت من بوابة المستشفى لتجد سيارة "ميني كوبر" حمراء بسقف جلدي أبيض متحرك.

نظرت إليها وقد غمرها قلق مفاجئ لا تدري كنهه.

امتدت يده لباب السيارة يفتحه لتركب قائلًا:

«أهلًا بيكي اتفضلي.»

ركبت وقلبها يكاد ينفجر من الخوف، لم يسبق لها قط الركوب مع غريب.

مئات الأسئلة تتسابق في ذهنها، «ماذا لو رآني أحد، أو كان قاتلًا أو مغتصبًا، ربما مجرم يقوم باختطافي لطلب فدية..

وماذا وماذا وماذا... لو...»

أفاقت من تساؤلاتها ومخاوفها المتلاحقة على وقوف السيارة أمام باب السكن.

رحمة: «متشكرة تعبتك معايا.»

مدحت: «أخيرًا فوقتي من اللي كنتي فيه! أنا من ساعة ما ركبتي بكلمك وإنتي في عالم تاني.

«حمد الله على السلامة.»

ردَّت بهدوءٍ: «الله يسلمك.»

ناولها بطاقة عليها اسمه وأرقام تليفوناته.

«لو احتجتي أي حاجة كلميني متتأخريش، أنا زي بابا أو أخوكي الكبير.»

هزت رأسها دون كلام واستدارت باتجاه المبنى عائدة.

بهدوء صعدت السلالم وسارت في الممر المعتم بين الغرف، دلفت إلى غرفتها، أغلقت الباب، تمددت بثيابها على السرير وراحت في سبات عميق.

تسلَّلَ ضوءُ النهار عبر النافذة، فتحت عينيها تتفحص الغرفة، انتبهت إلى أنها ما زالت بملابسها المتربة منذ الأمس إثر الحادث.

عادت بذهنها إلى ملابسات الليلة الماضية.

هذا الرجل.

التقطت حقيبتها الملقاة على الأرض بجوار السرير..

بأصابعها تناولت البطاقة التي تحمل الاسم وأرقام التليفونات.

"مدحت سعد". أعادت الاسم في ذهنها وألقت البطاقة بإهمال إلى الحقيبة مرة أخرى.

تناولت بشكيراً لأخذ دوش بارد يبعث في خلايا الجسد المرهقة بعض الانتعاش.

عادت إلى الغرفة مع ملامح تورُّد وانتعاش واضح.

أشاحت البشكير جانبًا عن جسدٍ أنثويٍّ متناسقٍ خمري اللون، جميل، وشعر كستنائي مُموَّج يصل إلى منتصف الظهر تتخلله خصلات شقراء، دائمًا ما يتجمع خلف ظهرها في شكل ذيل حصان، وارتدت بيجاما زرقاء مرسوم على الجزء الأعلى قطة بيضاء وحولها أزهار دقيقة وردية اللون.

والبنطلون تتناثر به الأزهار في كل مكان.

جميلة هي بهذا - أشادت المرآة - ملامح دقيقة رقيقة مع عينين واسعتين بلون العسل الصافي قابعتين خلف زجاج نظارة طبية.

هو شكلها منذ طفولتها.

لم تغيره السنوات ولا أسوار الجامعة.

ربما كان امتدادًا للتربية المتزمتة التي لم تعرف لها بديلًا.

كم رغبت في أن تُطلِق العنان للشعر في انطلاقه..

وإلقاء تلك النظارات الطبية جانبًا واستبدالها بزوج من العدسات اللاصقة.

لطالما أبدى الوالد رفضَهُ لهذه التقليعة - على حد وصفه: «لن ينال من يضعها سوى الأذى وإتلاف العين دون سببٍ مقنع.

«إنتي في الجامعة طالبة وهدفك المذاكرة والنجاح، أما العياقة لما يجي وقتها نبقى نعملها.»

قررت رحمة المكوث في غرفتها اليوم، ما زالت بعض الضلوع تؤلمها..

وعليها مراجعة بعض المحاضرات المتأخرة.

جلست إلى التسريحة وقد أخرجت لفافات الشعر الحديدية والكلبسات وطفقت تلف خصلات شعرها بتلك اللفافات. كم هي ثقيلة موجعة! بعد ساعة إلا ربع، وقد ارتدت تلك العمة من الهواء الساخن لتجفيف الشعر وفرده ثم لفه على شكل الدوامة وتثبيته بالبنسات ووضع الإيشارب الفيليه لإحكامه..

حان موعد الدراسة.

جلست أمام المكتب الصغير وأخرجت من أحد الأدراج كتابًا ودفترَ محاضرات وبدأت في القراءة ووضع خطوط تحت بعض العبارات وملاحظات في الهوامش.

سمعت طَرْقًا على الباب.

قامت لتفتح فإذا بإحدى العاملات بالسكن تخبرها أن هناك مَن يطلبها على الهاتف تحت في الاستقبال. نزلت السلالم في قفزات، لا بُدَّ أنهم أسرتها، أبوها وأمها، كم اشتاقت لأصواتهم!

وجدت السماعة موضوعة إلى جوار مشرفة الدار التي بادرتها قائلة: «هناك من يحمل لكِ أشياء من عند الأسرة ويريد أن يعطيكِ إياها.»

اعتلت عينيها خيبةُ أملٍ قوية.

أمسكت السماعة وهي تقول: «آلو، أنا رحمة مين حضرتك؟»

«أنا مدحت سعد يا آنسة رحمة.. أعتذر إن كنت أزعجتك.»

رحمة: «خير فيه حاجة حضرتك؟»

مدحت: «كنت عاوز أطمئن عليكي بعد حادثة إمبارح وماعرفتش أقول حاجة للي ردت على التليفون غير إني مرسال من طرف أسرتك ومعايا حاجات باعتينهالك. ممكن أقابلك النهارده عشان أديكي الحاجات؟» وأعقب الجملة بضحكة مبتسرة. رسمت على وجهها ابتسامة بسيطة تخفي بها صوتها المرتعش قلقًا وهي تتابع كلماتها ردًّا على الهاتف حتى لا تثير أي شكوك.

حانت منها التفاتة للأخت ماري المشرفة، وكانت الأخيرة تنظر إليها بإمعان.

تابعت رحمة بتلعثم: «حاضر، الساعة خمسة بعد العصر مناسب لحضرتك؟»

ثم أومأت برأسها وهي تكمل: «هكون عند باب تجارة الساعة خمسة تمام..“

«بس أرجوك ماتتأخرش.»

أنهت رحمة المحادثة ووضعت السماعة والتفتت للأخت ماري، شكرتها

بابتسامة وصعدت بسرعة ودقات قلبها تسابق خطوات أقدامها.

دخلت غرفتها، أغلقت بابها، واستندت إليه بظهرها.

«ما الذي أقحمت نفسي به؟» همست به لنفسها.

«مَن هذا الرجل وما الذي يريده مني؟؟»

موعد

قبل الموعد بعشر دقائق وصلت رحمة إلى حيث كان الموعد.

وجدته واقفًا في انتظارها مستندًا إلى السيارة الميني كوبر الحمراء، مرتديًا قميصًا أبيض مفتوح الياقة بعض الشيء يكشف عن سلسالٍ فضي عريضٍ، وجاكيتًا جلديًّا جملي اللون، وبنطالاً «جينز» وحذاءً رياضيًّا، وعلى وجهه نظارة شمسية ماركة "ريبان،" وكأنه غادر مجلة من مجلات الموضة الرجالية.

اقتربت بهدوءٍ، وكل خطوة ترجوها أن تعاود من حيث أتت، فما لها وهذا الرجل!

امتدت يده للسلام فلامست كفها المرتجفة الباردة.

«إنتي إيدك متلجة! الدنيا مش برد للدرجة دي، ولا يا ترى ده تأثير وجودي؟»

نظرت إليه نظرة تعمدت ألا يطرف لها جفن وهي تحادثه بنبرة تعمدت أن يشوبها بعض الحدة:

- أستاذ مدحت.. أنا مش فاهمة سبب المكالمة ولا وجودك هنا وتعريضي للإحراج بالتليفون قصاد مشرفة السكن.. اللي حصل حصل وإنت كتر خيرك وزيادة، وأنا عاجزة عن الشكر لاهتمامك بيَّ وقت الحادث، وشكرتك، بس أكتر من كده مافيش!»

ابتسامة هادئة على الوجه وبنبرة الواثق أجاب:

- ممكن تهدي شوية.. الحكاية وما فيها إنك وحدانية هنا، وده حسسني بمسؤولية تجاهك.

ممكن ترفضي كلامي أو تقلقي مني، أنا مقدر ده..

بس حقيقي هو ده اللي حصل، تخيلتك بنتي أو أختي الصغيرة ولوحدها وحصل لها اللي حصلك، ماقدرتش أمنع نفسي إني أتطمن عليكي.

ولو دا كان سبب كل الرعب والحدة اللي شايفها ف عنيكي وسامعها في صوتك فأنا حقيقي أعتذر وأوعدك إني مش هضايقك تاني أبدًا.

هدأت.. بدأت تتنفس بطريقة طبيعية وخفت حدة الصوت.

- أنا ما اتعودتش وجود حد غريب، وأول مرة أركب مع حد ما أعرفوش لما خرجت من المستشفى، وعمري ما خبيت حاجة عن بابا وماما.. وده ملخبطني.

ربت على كتفها مطمئنًا:

- إنتي معملتيش حاجة غير إنك انصابتي في حادث كان ليَّ دور فيه وركبتي تاكسي روَّحك السكن بس تاكسي شكله مختلف شوية.

وبعدها بالصدفة قابلتي حد بيتطمن عليكي. ممكن تقوليلي فين الغلط هنا والحاجة اللي ممكن تزعَّل بابا وماما؟

سكنت وقد راقتها صياغته لما كان.

في نفسها: «أجل هو ما حدث، ما لي وقد أقمتُ الدنيا فوق رأسي وأقعدتها!»

ردت بهدوء:

- بعتذر عن حدتي في الكلام، أنا متلخبطة شوية.

رد: خلاص ممكن تروحي مكان بتاكسي لطيف تشربي ليمون أو عصير برتقال تهدي نفسك، ونفس التاكسي بسواقه يوصلك المكان اللي عاوزة تروحيه.. إيه رأيك؟؟

ابتسمت ابتسامة رقيقة:

- لا مافيش داعي، أنا هارجع الدار.

قطرات أمطار رقيقة بدأت تغلف المشهد، نظرا في ذات الوقت إلى السماء.

- التاكسي بالانتظار يا آنسة، اتفضلي.

قالها وهو يفتح لها الباب بابتسامة مطَمْئِنة.

- مش هتتأخري.

لقاء

تغيرت الحياة، أم الأصوب أن نقول ارتدت أجمل أثوابها واستعدَّتْ للاحتفال!

أصبح لليوم معنى وجمال لم تعرفه يومًا.

هناك من يهتم بها، يرعاها كابنة مدللة ما عرفت الدلال في عمرها.

كان اليوم يبدأ بصورته في مخيلتها وينتهي به، وخلال النهار لا تفتأ تتذكر قفشاته ومغامراته التي كان يحكيها حين كان في مثل عمرها.

كان الأب الذي تمنَّت، والصديق ومستودع أسرار يومها..

وبعض حماقات زملائها من مغازلات بريئة ونظرات موجهة.. لم تكن تُخفي شيئًا.

وكان متفتحًا لكل الأفكار، يتحاور معها ببساطة وعقلانية افتقدتها في الأب البعيد ولم تعهدها فيمن هم في مثل عمرها.

كانت تتنازعها مشاعر بتأنيب الضمير للازدواجية التي تحياها..

هي رحمة الهادئة الكتومة المتزنة، اهتمامها بدراستها يفوق أيَّ اهتمامٍ.. والآن لم تعد تعرف سوى أنها تحيا الحياة كما تمنت دائمًا دونما القيود التي كبلتها، أحاطت بها، وتركت آثارها الخفية في النفس وتحت الجلد لا يعرفها دونها ولا يعلم بها سواها من البشر.

استفاقت صباح هذا اليوم، الخميس، إجازتها من الكلية..

واختارت من الثياب المريح؛ فقَدْ وعدها مدحت بنزهة لن تنساها أبدًا؛ لذا كان الحبور باديًا على تفاصيل خلجاتها مع طلاء شفاه ورديٍّ فاتح وبعض من الكحل الأسود حدَّد العينين العسليتين.

ها هي تدخل قدميها في الحذاء الرياضي وتلتقط حقيبتها وتهرع إلى الشارع إلى حيث موعد اللقاء.

وجدته في الانتظار، ابتهجت لمَرآه.

إنه أنيق.. يعرف كيف ينتقي ملابسه فتضفي عليه ملمحًا شبابيًّا جميلًا لا يُشير إلى حقيقة عمره الذي قارب على الأربعين.

فتح الباب فتوارت بداخل السيارة دون أن تتلفت حولها خشيةً أن يلمحها أحدٌ من المعارف على سبيل الصدف السيئة.

تنفست الصعداء حين انطلقت السيارة الصغيرة بأقصى سرعتها.

استدارت في جلستها لتواجهه، وبابتسامة صبيانية وصوت سعيد بادرته:

رحمة: «إزيك النهارده؟»

ردَّ وصوته يفيض بالبِشر وابتسامة جذابة تنير الوجه: «دلوقتي من أسعد الناس عشان شُفتك. أخبارنا إيه النهارده؟»

ردت بسعادة:

- الحمد لله مبسوطة خالص.

- والمذاكرة؟ تابع مكملًا.

ردت: آخر شطارة وكله تمام.. هنروح فين؟

سألها: بتحبي الفطير المشلتت؟؟

ردت: وهو مين مابيحبش المشلتت!

- خلاص سلميلي نفسك النهارده وهتقضي يوم ماشُفتيش زيه أبدًا.

انطلق بالسيارة بسرعة ودون توقف.

لاحظت اللافتة «طريق الإسكندرية الزراعي».

بدأ القلق يظهر على ملامحها وتنطق به العينان.

خاطبها دون النظر إليها: «ماتخافيش، هتكوني في السكن قبل المعاد.»

تسابقت الأفكار في ذهنها وبدأت أمعاؤها تتقلص من الخوف:

«أي حُمق جلبتِ على نفسك أيتها البلهاء؟» وعادت إليها مخاوفها السابقة حين ركبت السيارة للمرة الأولى.

قطع تسلسل أفكارها صوته يقول:

- سمو الأميرة الجميلة رحمة.. الولائم مُعَّدة لاستقبالك.

أفاقت من مخاوفها لتجد نفسها أمام مبنى أبيض يعلوه برج حمام..

واللافتة «برج المنوفية السياحي».

بادرته بالسؤال:

- إحنا فين هنا؟

رد: إحنا في معقل الفطير المشلتت زي ما وعدتك، هتدوقي فطير عمرك ما دوقتي ولا هتدوقي زيه أبدًا.

ابتسمت ابتسامة مجاملة بينما من داخلها لعنت تهورها.

أقبل رجلٌ يبدو من هيئته أن له شأنًا في المكان.

تبادل هو ومدحت السلام بحميمية كأنهم رفاق عُمر..

وقدَّمها مدحت إليه: «الآنسة رحمة»، ولم يعقب.

أحنى رأسه بالتحية إليها وقادهما حيث طاولة سرعان ما وُضعت عليها الأطباق بكل ما لذَّ وطاب من "مِش" وجبنة قريش بالطماطم وعسل أسود بالطحينة، ثم ما لبثت أقراص المشلتت بالسمن البلدي أن افترشت الطاولة وقد سبقتها الرائحة الشهية.

نظر إليها وقد جالت عيناها بالأطباق فاستمتعت العين بالمذاق قبل المعدة.

تناولت الطعام اللذيذ دون أن تنبس ببنت شفة.

فاجأها بالسؤال:

- إنتي دماغك مابطلتش تفكير من ساعة ما طلعنا على الطريق، ممكن أعرف ليه؟

أجابت:

- المفاجأة عقدت لساني وقلقت، أنا أول مرة أخرج بره حدود القاهرة.. يمكن مكنتش مستعدة، مش عارفة..

نظر إليها نظرة مطولة، وأردف معلنًا انتهاءه من الأكل:

- الحمد لله، إيه رأيك في الأكل؟

ابتسمت ابتسامة حلوة وردت:

- يااااه من زمان أوي ما أكلتش أكل بالطعامة دي.. إنت غيَّرت حاجات كتير في دنيتي، حتى الألوان اللي بعشقها، أول مرة أشوف أدّ إيه اللون الأخضر حلو في الزرع، والأبيض منوَّر في أبراج الحمام، والأصفر بيلمع في سنابل القمح، والأحمر أجمل ألوان الورد!

أول مرة أحس إني باخد نفَسِي وأنا مرتاحة مش خايفة ولا قلقانة يكون النَّفَس غلط ولا قلة أدب.

أدّ إيه اتمنيت بابا يكون زيك يسمعني ويستوعب اللي جوايا ما أخافش أبص لعينيه يكون بيبرقلي لأني عملت حاجة غلط أو قُلت حاجة مش مفروض أقولها.

أنا من ساعة ما عرفتك حسِّيت أدّ إيه نِفسي أعيش طفولتي من تاني وأحلم من تاني وأجري من تاني!

أطفأ سيجارَهُ وتناول يدها:

- يللا بينا نتمشى شوية.

سارت وراءه كصغيرة تتبع أباها بمنتهى السعادة والطمأنينة.

أجلسها على دكة خشبية متهالكة وواجهها قائلًا:

- أنا اتجوزت مراتي وأنا في أواخر العشرينات جواز صالونات، عشنا مع بعض عشر سنين، مشاكلنا كانت كتير، يمكن لأننا مافهمناش بعض كويس، كان ممكن أغفر أي حاجة إلا يوم ما اكتشفت إنها بتتعمد مايكونش بيننا طفل يربطها بيَّ. أصريت إننا لازم نفترق.

لما شفتك أول مرة وقت الحادثة حسِّيت نفسي قُدَّام حتة مني.. البنت اللي حلمت عمري تكون بنتي..

«قد إيه خفت إنك ترفضي صداقتي وإحساس الأبوة اللى حسيته ناحيتك..

بس بعد ما قربت منك بالشكل ده لخبطتيني وقلبتي حياتي..

اليوم اللي مش باشوفك فيه بابقى في أسوأ حالاتي..

قُلت لروحي كتير يا ريتني قابلتِك في وقت غير الوقت وزمان غير الزمان، يمكن كنَّا هنعيش أسعد اتنين في الدنيا!

كانت رحمة تستمع للكلمات تطرق أذنيها طرقًا موجعًا ثم يعود ليتردد صداه فيزداد الألم للحظات، شعرت بأن الأرض تميد من تحت قدميها..

اقترب منها وضمها..

كانت ترتجف كقطة صغيرة غمروها بالماء المثلج..

شعر بجسدها يتصلب بين ذراعيه، نحى ذراعيه المحيطة، أبعدها عنه.. نظرات العينين لطفلة صغيرة تائهة وسط زحام الكون تبحث عن الأمان.

أسرع بإحضار كوب من الماء البارد لتشرب، لكن هيهات، إنها لا تراه ولا الكوب ولا الدنيا من حولها. بعد برهة ليست بالقصيرة نظرت إليه بعينين تحجرت بداخلهما دموعُ الخيبة: «من فضلك رجِّعني السكن.»

ربَّت على رأسها:

- يلَّا بينا.

دخلت إلى السيارة، لم تفارق عيناها النافذة الجانبية وساد صمت مطبق أثناء العودة إلى أن وصلا.

لم تنتظر لتسمع أو تقول..

فتحت الباب وانطلقت بخطوات سريعة أشبه بالركض، دلفت إلى الدار دونما كلمة إلى غرفتها، وبمجرد غلق الباب انهارت في البكاء كأنها لم تبكِ يومًا قط.

لزمت فراشها يومين لا تخرج من غرفتها إلا لقضاء حاجة ثم العودة إلى وحدتها ثانية.

لم تبارح كلماته فكرها، «أي شطط تفوَّهْ به هذا الرجل؟

ماذا الذي حدث؟ أي فكرة مجنونة تلك التي نبتت في رأسه؟

أم تراها كانت فكرته الأصلية وأنا تلك الساذجة وقعت في فخ الحنان الأبوي!

تبًّا لغبائي وقلة فهمي!

كم تمنيته أبًا بديلًا يغدق عليَّ حنانه وتفهمه، أحيا صغيرة بداخل دنياه الملونة بألوان الطيف والحوريات..

ماذا تتوقعين أيتها البلهاء!».. قالتها في نفسها مرارًا وتكرارًا.

«لقد مزقت شرنقتك الحامية قبل أوانها، فكان لا بُدَّ أن تبلى الأجنحة قبل أن تبدئي حتى بتحريكها للطيران..

الآن وقد انتهى الحلم وأُسدلت الستائر على تلك المسرحية الفاشلة لا بُدَّ أن تعودي بالوعي إلى نقطة البداية، انفضي عن عينيك غشاوة الوهم..

ارجعي يا رحمة لذاتك الحقيقية، ألقي خلفك كل ما كان.

فقد انتهى إلى خبر كان.“

عادت إلى الدراسة بعد انقطاع دام عدة أيام، عادت رحمة وقد عقدت شعرها فجمعته وراء ظهرها في قيده من جديد، كل شيء عاد لسابق عهده.

فقط اختفت النظرة السعيدة وحل محلها انكسار لا يلمحه سوى من يعرفها جيدًا، وما أقلهم.

مرت الأيام بطيئة بلا أحداث، وتتابع روتين الحياة بخطى ثابتة لم يقطعه سوى مكالمات من الأهل للاطمئنان عليها وعلى سير الدراسة.

كانت بداخل نفسها تتمنى لو تلمح تلك السيارة الحمراء الحبيبة إلى قلبها ولو صدفة، كم اشتاقت لرؤيته، للحظات سعادة لم تعرفها قبل وجوده في حياتها..

ثم تعود لوعيها فتلعن تلك الحادثة التي جمعتها به.

بدأت الحياة تعود إلى مجراها وقد عادت لطبيعتها الأولى وانتظمت في دراستها، حتى عادت ذات مساء من دراستها لتجد السيارة الغالية على القلب تقف غير بعيد من بوابة السكن..

للحظات.. توقَّفْ الزمن، وتعطل الذهن، واندفعت الدماء تتسارع بداخل الشرايين..

تجمدت في مكانها وهي تراه يقترب منها، هاتف بداخلها يصرخ بها: «انجي بنفسك، لستِ ندًّا في معركة أنتِ الخاسرة الوحيدة سلفًا!»

ودقات قلبها تصرخ: «كم أوحشتني وكم أفتقدك!»

ظلت في مكانها دون حِراك، دون نَفسٍ، ودون إرادة.

مدَّ يده بالسلام، فقابلتها بيدٍ مرتعشة حتى سكنت بباطن كفه القوية.

بادرها:

- وحشتيني، ممكن نقعد نتكلم في مكان هادي؟

ردت بصوت مبحوح:

- ماينفعش، أنا أصلًا كان عندي محاضرات متأخرة ولازم أدخل السكن دلوقتي.

قال لها:

- بكرة الخميس وانتي أجازة، لازم نتكلم، أنا عارف إنك متلخبطة من الكلام اللى قولتهولك ومحتاج أشرحلك موقفي.

- مافيش لازمة للشرح، أنا نسيت كل حاجة اتقالت...

قاطعها:

- بس أنا مانستش ومحتاج أتكلم معاكي قوي، من فضلك اسمحيلي بدقائق من وقتك بكرة، ولو مش عاوزة تشوفيني تاني خلاص مش هتشوفيني أبدًا بعدها.

نسيج العنكبوت

في الصباح التالي كان اللقاء في فندق سفير القاهرة.

ذهبت مرتبكة، فلم يسبق لها أن دخلت فندقًا وحدها دون أُسرتها، ولسان الحال يؤنب: «ألستِ خائفة!!

«ماذا لو رآكِ أحد الأقارب أو المعارف؟»

بدأت في اختلاق أكاذيب وترديدها حتى لا تبدو مختلقة، مثلًا أنها ذاهبة لمصفف الشعر بالفندق للحصول على قصة شعر جميلة، أو مثلًا أنها هنا لاستلام ملابسها من المغسلة لوجود بقع صعبة التنظيف بها وهذا المكان هو الأقرب للجامعة فتستطيع استلام الملابس دون مجهود يُذكر.

وبداخلها تتساءل: «ما الذي تفعلينه بنفسك، أين أنتِ من كل هذه الأكاذيب؟»

علموها أنَّ من يرتكب الخطأ أو الإثم هو فقط مَن يكذب، وإلا فيما الكذب إن لم يكن للمدارة والخداع!

وصلت إلى الكافيتريا..

إنه هناك يجلس بأناقته المعهودة وبفمه ذلك السيجار القصير المسمى بالهاڤانا، له رائحة خانقة لم تستسِغها مذ تشمَّمَتْها أول مرة.

اقتربت فانتبه لها وقام من مجلسه ليسحب لها الكرسي.

لم تمد يدها بل جلست مسرعة وهي تدعو الله أن يجعلها غير مرئية، فربما يكون هناك من زملائها مرتادي المكان.

نظر إليها نظرةً اخترقتها وأصابت القلب بالوهن، لكنها استجمعت شجاعتها وتكلمت بصوت هادئ راعت فيه ثبات النبرة واتزانها:

رحمة: أنا جيت حسب الميعاد رغم إني مش شايفة لزوم للقعدة دي.

مدحت: يا رحمة أنا ماكنش قصدي أخوِّفِك مني. أنا حبيت أقولك اللي جوايا.

أنا فاهم طبعًا إني تجاوزت الخطوط الحمراء، مين يقول إن من حق راجل داخل على الأربعين يحب بنوتة ممكن تكون في سن بنته؟ أنا عارف إن فرق السن بينَّا عشرين سنة، بس أحلفلك بإيه إني ماكنتش بفكر، كان قلبي هو اللي بيتكلم. أنا غلطان وحقك عليَّ، كل اللي طالبه منك إنك ماتحرمينيش من إني أشوفك وأتطمن عليكي، وأوعدك إن الموضوع ده مش هيتفتح تاني أبدًا وهكون الصديق والأب اللي كنتي مطمئنة معاه.

رفعت رأسها ونظرة متشككة تسكن عينيها.

- أنا لازم أمشي دلوقتي.. -قالتها وقد استعدت للرحيل- عندي مذاكرة كتير متأخرة ولازم أرجع أخلصها.

- ممكن أوصَّلِك؟ قالها برجاء.

جاء ردها حاسمًا:

- لأ، هاروَّح لوحدي.

غادرته مسرعة وألقت بنفسها داخل أول تاكسي وجدته أمامها على باب الفندق.

****

حملت الأيام التالية بعض الهدوء، فقد التزم الرجل بوعده كاملًا دون أي تجاوزات..

لكنها هي من كانت في حالة من التشويش النفسي دون مبرر واضح.

فتاة في الثامنة عشر لا تدري من أمر الدنيا ما يؤهلها للثبات أمام ما يواجهها من أفاعيل عالمها الخارجي، وبخاصة دنيا الرجال.

فقدت تركيزها واتزانها النفسي، كانت تفتح دفتر محاضراتها أمامها تتلاعب الخطوط أمامها فلا تستفيق من جلستها إلا وقد مضى شطر من الليل دون أن ترى حرفًا من المكتوب.

تباعدت اللقاءات وقلت المكالمات إلى الحد الأدنى، فكانت تراه يوم عطلتها؛ الخميس.. وفي أضيق الحدود.

لم تكن تدري أن ما في جعبته يحمل لها من التشوش ما لم يخطر لها ببال.

كان الخميس يوم اللقاء الأسبوعي بعد فترة انقطاع لسفرية عمل إلى باريس لمدة أسبوع.

كان اللقاء أمام بوابة حديقة الأورمان.

كانت تتحرق شوقًا لرؤيته وسماع صوته، وعلَّلَتْ ذلك بداخلها أنه افتقاد لصديقها الوحيد.

حين لمحته بداخل السيارة أسرعت الخطى تكاد تتعثر حتى ركبت السيارة.

وبكل الفرحة صرخت:

- وحشتني أوي.

ردَّ وابتسامة أخاذة على الوجه: وانتي أكتر كتير.

رحمة تتحدث بسرعة ولهفة:

- احكيلي.. اتبسطت؟ روحت برج إيفل؟ لفِّيت في السين؟ احكيلي كل حاجة!

مدحت: إهدي عليَّا شوية، دي مش أول مرة أروح باريس، بس آه رُحت إيفل وزعقت بأعلى صوتي إن رحمة بتسلِّم على باريس مكان مكان ونفر نَفَر زي ما وصيتيني بالظبط، والأهم من ده كله الحاجات اللي في الشنطة اللي على الكنبة اللي ورا.

التفتت وجدت حقيبة سفر صغيرة الحجم.

قالتله: إيه دي؟

رد: شنطة.

رحمة: ما أنا شايفة إنها شنطة، بس إيه الأهمية فيها؟

مدحت: مش الأب لما بيسافر بيجيب لأولاده هدايا وهو راجع، وأنا ماعنديش غير بنت واحدة هي كل قلبي فجبت لها كل اللي حسيت إنه هيبقى عليها أحلى حاجة في الدنيا.

توقفت السيارة أمام مقهى للسياح في منطقة الأهرام.

وساد الهدوء.

- مالك ساكتة ليه؟ سألها.

ردَّت: عشان ده مش صح. إحنا صحيح أصحاب وأنا بحسك قريب قربي للأب اللي نفسي يكون أبويا، بس الحقيقة إنك مش هو ولا عمرك هتكون!

أنا نفسي مش عارفة إنت مين جوايا، أرجوك بلاش تلخبطني أكتر ما أنا متلخبطة.

تكلم بحدة:

- أنا اللي مش فاهمك، رفضتي كلامي لما قُلتلك إني بحبك، وبعدها وعدتك إني هانسى الموضوع ده خالص وعلاقتنا هتبقى علاقة أب وبنته.. واتصرفت من المنطلق كل ما أشوف حاجة أحس إنها هتبقى حلوة على بنوتي أدخل من غير ما أشعر أجيبها.. عملت إيه غلط في نظرك؟ عمومًا خلاص إنسي إنك شُفتي الشنطة خالص.

أدار السيارة وتحرك عائدًا بأقصى سرعة.

- معلش يا رحمة أنا افتكرت إن عندي مشوار كنت ناسيه.

كانت مطرقة الرأس تنساب دموعها بهدوءٍ، لم تعقب. عاد بها إلى السكن،

وقبل البوابة بعدة أمتار توقف، فتحت الباب وبمجرد نزولها انطلق بأقصى سرعة أثارت إزعاج المارة.. ورعبها عليه هو شخصيًّا.

اختلفت طبيعة رحمة فاختفى الهدوء والوداعة وأصبحت عصبية نافدة الصبر، لا تكاد تتحدث دون أن تنفعل وتثور وإن لم يستدعِ الموقف الانفعال والثورة.

انغلقت على نفسها أكثر وأكثر.

حتى مكالمات الوالدين كانت ترد من باب الأدب ودائمًا هي نفس الإجابة، الحمد لله كويسة والدراسة تمام.

لم تكن تلك هي الحقيقة، فلم تكن قط كويسة وكانت الدراسة آخر اهتماماتها.

كانت تخرج صباحًا من السكن تتجول في الزمالك وأحيانًا شارع قصر النيل، وعند الإحساس بالجوع كانت تتناول قطعة جاتوه في أحد محال الحلويات وغالبًا في جروبي سليمان باشا.

كانت ناقمة على كل شيء، على الأب والأم.. حمَّلت الجميع ألم قلبها وانكساره، وحدتها والخواء بداخلها.

كم تمنت الحياة السوية بين أبٍ يعي كم تحتاج ابنتُه إلى وجوده وتفهُّمه، قبوله لرغباتها وربما لشططها في بعض الأحيان.. كم تمنت أن ترى نظرات مدحت ووجهه على أبيها.

اتسع حنقها ليشمل الجميع.. أمها البعيدة تدبِّر أمور الأسرة، وأختها وأخيها الصغير.

لم تعِ أيَّ شيءٍ سوى وحدتها وألمها.

لم تعد تهتم بالدراسة ولا المحاضرات. إنها لم تودها يومًا، إنما هي رغبات أُجبرت على الخضوع لها.

منذ الآن لن أفعل سوى ما يروق لي أنا فقط!

****

صبيحة هذا اليوم قررت أنها تود اقتناء بعضٍ من كتب نجيب محفوظ، لم تتردد، حوالي العاشرة صباحًا خرجت من الدار وأوقفت تاكسي قائلة: سليمان باشا.

كانت وجهتها مكتبة مدبولي الحبيبة، كم كانت تسعد حين ترى رصات الكتب تفترش أرض الشارع.

لم يعد يعنيها ما قد يتفوه به المارة حين يرونها تجلس القرفصاء تنتقي من هنا وهناك.

وربما لم يعد يعنيها أيُّ شيءٍ سوى ما تشعر به من مشاعر الآن.

اقتنت الثلاثية والسراب وأخيرًا بداية ونهاية، دفعت الثمن وهي تحتضن الحقيبة البلاستيكية التي تضم العوالم التي قررت الرحيل إليها حين تعود إلى غرفتها الصغيرة في السكن.

وأثناء خروجها من المكتبة اصطدمت بأحد المارة دون قصد، رفعت رأسها للاعتذار.

لم تستوعب ما حدث للتو، أكانت تتخيل أم أنها تلك الابتسامة والوجه الحبيب؟

بادرها: مش تبقي تاخدي بالك يا آنسة قبل ما تخبطي في حد؟

اغرورقت عيناها بالدمع دون صوتٍ، مسمرة كالتمثال كانت.

أخذ عنها حقيبةَ الكتب فقد كانت على وشك أن تفلتها من يدها.

التقط الكف الصغيرة وسار بها إلى أن دخلا جروبي، انتقى طاولة منزوية ولم يكن المكان قد ازدحم بعد.

- وحشتيني قوي. بصوت حنون أقرب إلى الهمس.

لم ترد وإن ارتسم على الوجه كل أحزان الدنيا.

- مش عاوزة تكلميني، إنتي مخصماني يا بنوتة؟

ردَّت بصوت لا يكاد يُسمَع: إنت اللي سيبتِني ومشيت، أنا خلاص مابقتش عاوزة حد يقرب مني عشان ما أتوجعش لما يبعد.. إنت كمان زيهم ماتفرقش عنهم حاجة.

رد بهدوء:

- زي مين يا رحمة؟ إنتي تعرفي حد بيحبك أوي غيري؟

لم تتمالك نفسها فشهقت بالبكاء:

- إنت مش بتحبني، لو زي ما بتقول ماكنتش قعدت طول المدة دي بعيد ولا حتى تليفون تطمن عليَّ فيه.

أنا خلاص مابقتش بصدق أي كلام.

طيب ممكن تهدي شوية؟ الناس بتتفرج علينا، خايف حد يفتكر إني عملت فيكي حاجة لا سمح الله.

وناولها مجموعة من المناديل الورقية لتجفف دمعها.

تابع قائلًا:

- مين قال إني ماكنتش باتطمن عليكي؟ ما فيش يوم خرجتي فيه بره السكن ماكنتش وراكي، وانتي بتلفي على المحلات وعنيكي في مكان تاني، وانتي بتاكلي جاتوه، وانتي قاعدة على الرصيف لما بتتعبي.. كنت دايمًا موجود.

إنتي اللي ماكنتيش حاسة بحاجة ولا حد حواليكي.

بس ماقدرتش أبعد أكتر من كده ولا أعيش دور الأب، صدقيني حاولت بس ماقدرتش، أنا بحبك وعاوزك معايا وجنبي حبيبة.. إنتي مش بنتي ولا أنا هقدر أكون أبوكي، أنا مش قادر أعيش من غيرك.

كانت رحمة تستمع ما بين مصدقة وواهمة، ودت لو صرخت "أنا بحبك أكتر".

احتضن كفها ما بين أصابعه وهو يعلم تمامًا أنه قد ربح الجولة بانتصار ساحق..

المتاهة

كم تغيرتِ يا رحمة! قالتها في نفسها أمام المرآة.

ليست قصة الشعر هي السبب، وبالتأكيد ليست طبيعة الملابس..

أنا أحيا من جديدٍ، هذا ما حدث.

وأي خطأ في أن يحيا المرء ببعض السعادة والحب! لم أرتكب إثمًا في حياتي قَط.

عشت حياتي وفق خطوطٍ مرسومةٍ لا أحيد عنها، وإلا الويل والثبور وعظائم الأمور.

لا أذكر سعادة دون بقايا من ألمٍ، فرحة خالصة بلا خوف من الآتي.

عشت الحياة هاربة منها إلى داخل أحلامي..

الأحلام بالفارس، مَن سيصبغ دنياي بألوان الحب والسعادة. وها قد وجدتُه، فلِمَ لا أسعد بنفسي لنفسي؟

بعد أن أتمت وضع لفائف الشعر على رأسها تمددت على الفراش وضمت إليها وسادتها على شكل قطة، قرأت في سرها المعوذتين والإخلاص وآية الكرسي وأسلمت العيون للمنام والأحلام.

****

اختلفت الحياة بعد ذلك، بل انقلبت رأسًا على عقب.

لم أعد تلك الفتاة الملتزمة بنص الكتاب،تقلص اهتمامي بالدراسة، واقتصر الذهاب إلى الجامعة على ملاقات الصديقات ونَسخ المحاضرات وضمان عدم تجاوز نسب الغياب المقررة.

كان مدحت هو مفتاح بوابات العالم الخارجي.

ارتدتُ حفلات الأوبرا، وساقية الصاوي، وبيت السحيمي، تلك الدنيا التي لطالما حلمتُ بها دون أمل الدخول إليها. جلست على المقاهي الشعبية، راقبته وهو ينفث دخان "الشيشة" وأهيم مع زفرات الدخان.

تملكتني فكرة أنه هو من أرسلته العناية الإلهية كي أحيا به وله.

تتملكني وحشة الأهل فقط حينما يتم استدعائي للرد على المكالمة كل بضعة أيام، ولا تتعدى المشاعر بداخلها أكثر من بعض مشاعر الافتقاد.

حملت الأيام التالية بعضًا من المفاجآت غير المتوقعة.

كانت الأم ماري المشرفة تلاحظ التغييرات ولا تتحدث، فالفتاة لا تتأخر عن مواعيد الدار ولا تفتعل أيًّا من المشكلات، بل على العكس لطيفة مؤدبة، ولكنَّ خللًا ما في الصورة، إنها ليست نفس الفتاة الأولى التي قدمت منذ شهور مع والدها ووالدتها.

حتى رأتها يومًا أثناء عودتها من الخارج وهي تغادر السيارة ورأت قائدها، إنه رجل ناضج لا يمكن أن يكون أحد زملائها.

ساورتها الشكوك في الأمر واتخذت قرارها بالتواصل مع الأم، فهي تتذكر كيف كان حالها حين ودعت الفتاة في طريقها إلى المطار وتوسلاتها للأم ماري بمتابعة رحمة والاعتناء بها فلم يسبق لها أن ابتعدت عن الأسرة يومًا.

وحُسم الأمر، تواصلت مع الأم من خلال رقم الهاتف المدرج في السجلات، وأخبرتها عما رأت وملاحظاتها عن التغييرات التي طرأت في مظهر الفتاة وخروجها المستمر حتى يوم الخميس يوم العطلة الذي كانت لا تفارق فيه غرفتها لتدرس.

صمتت الأم طيلة المكالمة، لقد كانت تشعر في نفسها منذ فترة بتغير ما في الفتاة لم تدرك كنهه وأرجعته لكون رحمة وحيدة فلا بُدَّ أنها تشعر بالوحدة ومن الطبيعي أن تتغير الفتيات في هذا السن، لكنها قَطّ لم تتخيل أن تنحى رحمة أي منحى سوى المرسوم لها.

طلبت الأم من المشرفة أن تحتفظ بسر المكالمة لنفسها، وأنها خلال أسبوع ستكون في القاهرة، وأكَّدت عليها بعدم إخبار رحمة بالأمر.

وقد كان..

بعد عدة أيام عادت رحمة من الخارج بعد أن ودعت مدحت، وبمجرد دخولها الدار سمعت صوتًا حبيبًا تعرفه جيدًا، بين مصدقة ومكذبة التفتت لتواجه مصدر الصوت، صرخت بفرحة عارمة:

- ماما انتي هنا بجد؟ إزاي؟ ماقولتيليش ليه إنك جاية؟ إنتي لوحدك ولا حد جه معاكي؟

وحشتيني أوي أوي يا ماما!

ربتت على كتفها قائلة:

- وحشتيني.. قُلت بدل التليفون هما كلهم ساعتين وتبقي في حضني، إيه رأيك في المفاجأة دي؟

ردت رحمة: تحفة مفاجأة رهيبة، إنتي هتقعدي معايا كتير مش كده والنبي؟

ردت الام بابتسامة حانية ارتسمت على الوجه ولم تعقب.

ثم عاودت كلامها:

- أنا نازلة في مأمورية شغل وحجزت في شبرد، وإنتي هتقعدي معايا لحد ما أمشي.

لحظتها فقط أفاقت رحمة من لحظات السعادة التي غمرتها لرؤية والدتها والسكن بداخل حضنها الذي عاشت تحلم به طيلة الفترة السابقة..

مدحت.. دوى الاسم بداخل أذنيها فغابت الإشراقة وحل محلها لمحة من الحيرة لم تخفَ على الأم لكنها لم تُظهر ذلك.

- يلَّا يا رحمة هاتي معاكي كام طقم وكل اللي هتحتاجيه في يومين تلاتة. وكشاكيل محاضراتك، أنا هيبقى عندي شغل الصبح وانتي في محاضراتك،

ونتقابل آخر النهار ونخرج نتفسح سوا. لو تعرفي إنتي وحشتينا أنا وبابا وإخواتك أدّ إيه!

مستنيين الأجازة عشان بابا مرتِّب لنا فسحة جميلة مش هتخطرلكم على بال.

لم يكن لكلام الأم أي وقع على الابنة حتى لم تلقِ له بالًا، مجرد ابتسامة بلهاء دون معنى ارتسمت على وجهها. بسرعة جمعت بعضًا من الثياب التي اعتادت ارتداءها سابقًا وبعض اللوازم، وألقت كشكولاً لا تدري لأي مادة هو.

سارت خلف أمها، ألقت التحية على المشرفة الأم ماري التي تبادلت مع الأم نظرات لها معنى لم تلحظها الفتاة الصغيرة، وبداخل التاكسي في الطريق إلى الفندق فاجأتها الأم بسؤالها:

- إنتي إمتى قصيتي شعرك وليه، إنتي شعرك كان جميل وعلامة جمال البنت شعرها! ردت رحمة: زهقت منه يا ماما، على طول ملموم وبيغلبني في تسريحه. بذمتك مش كده أحسن؟

ابتسمت الأم ابتسامة مبتورة، إنها تعلم في قرارة نفسها أن الجالسة أمامها ليست هي من غادرتهم منذ شهور.

في داخلها تنفست رحمة الصعداء: ماما عندها شغل طول النهار، الحمد لله!

لم تكن تدري أن للأم مخططات أخرى هي شغلها الشاغل الآن.

في الصباح التالي استيقظت الأم مبكرة، أيقظت رحمة لتناول الإفطار، تكاسلت الفتاة بدعوى أن محاضراتها اليوم تبدأ متأخرة قائلة:

- روحي إنتي يا ماما شغلك، أنا لما أصحى هاطلب فطاري هنا وألبس وأروح الكلية، ونتقابل بعد ما نخلص وأنا بقى اللي هفسحك فسحة ما حصلتش.

نزلت الأم إلى مكتب الاستقبال وطلبت استئجار سيارة دون سائق.

خرجت إلى الشارع، قادت السيارة حول الفندق إلى أن وجدت مكانًا بالقرب من الباب الرئيسي، صفت السيارة وانتظرت بداخلها تراقب الباب.

لم يمضِ أكثر من ربع ساعة حتى خرجت رحمة مسرعة، أشارت لسيارة أجرة ركبتها وانطلقت بها مسرعة، وعلى الفور أدارت الأم السيارة ولاحقت سيارة الأجرة دون أن يطرف لها جفن، وقد تسارعت دقات القلب حتى إنها شعرت بالنبضات تدوي أعلى الحلق وتسمع أزيره بداخل الأذن.

توقفت سيارة الأجرة، نزلت منها رحمة، سارت عدة خطوات ثم فتحت باب سيارة من السيارات الشبابية الغالية.

لم ترَ قائدها لكنها تحركت خلف السيارة فور تحركها، احتفظت بسرعة متوسطة ومسافة محسوبة حتى لا يشعر قائد السيارة الأمامية أنها تلاحقه.

وصلت السيارة شارع العروبة مصر الجديدة ثم تابعت مسارها في طريق المطار، وبعدها دخلت إلى فندق موڤبيك، من مكانها لمحت طفلتها الغريرة وقد تعلقت بذراع رجل غريب ليس أباها.

"ما الذي فعلته بنفسك وبنا يا ابنتي؟"

كادت الأم أن تسقط أرضًا لكنها تمالكت نفسها.

أغلقت السيارة وسارت وقدماها لا تقويان على حملها.

ببطء كانت تنقل قدميها، وعيناها تتجولان بحرقة الملهوف لقطرة ماء في الرمق الأخير.

ها هي طفلتها تجلس أمامها ترمق ذلك الغريب وكأن الروح مُعلَّقة به.

اقتربت بهدوء حتى وصلت إلى طاولتهما، وبهدوء شديد سحبت كرسيًّا وجلست.

نظر مدحت إليها نظرة دهشة مقترنة باستهجان.

رحمة تجمدت في مكانها، واتسعت حدقتها وتجمدت في مكانها، كلمة واحدة تفوهت بها:

- ماما!

بُهت الجالس للحظات، ثم استجمع صوته مع بعضٍ من شجاعة وقال:

- أهلًا وسهلًا، رحمة بلغتني إنك وصلتي بالسلامة وكنت لسه بأقولها إني عاوز أتعرف بحضرتك.

كانت الأم تقلب النظر بينهما دون أن تنبس بكلمة، وجهت الكلام لرحمة بهدوء دون أن تلتفت إلى الجالس أمامها:

- يلَّا بينا يا رحمة، ده لا مكانك ولا مكاني.

حاولت رحمة أن تفتح فاها، بادرتها بنظرة أجهضت الكلام في الحلق وأتبعتها:

- اسبقيني.

قامت رحمة مطأطأة الرأس.

التفتت الأم إلى الجالس المتوتر الأنفاس وقالت:

- أنا بحذرك تقرب من بنتي أو تتصل بيها مرة تانية!

قال: يا مدام حضرتك مش فاهمة الموضوع صح، فيه سوء تفاهم.

ردت الأم بحزم:

- لما تخلي بنت ممكن تكون في سن بنتك تسيب كُليتها وتهرب من محاضراتها وتكذب على أهلها عشان تقعد بيها في الكافيتريات.. وماسكة في إيدك زى الحبِّيبة، أبقى أنا فاهمة الموضوع صح جدًّا.

غادرت مقعدها قائلة: ده آخر الكلام.

أدارت ظهرها وغادرت وتركته وهي ترتجف من الغضب والخوف في آنٍ واحدٍ.

ذهنها يدور بسرعة البرق: ما عساني أفعل مع تلك الغريرة؟

أين أخطأنا لتقع الصبية في تلك الهوة السحيقة؟

كانت رحمة في انتظار أمها في بهو الاستقبال في الفندق لا تكاد ترى من سيل دموعها مما لفت إليها أنظار المحيطين.

لحقت بها أمها قائلة: إمشي معايا.

فتحت رحمة فاها لتتحدث فبادرتها الأم:

- نتكلم لما نوصل الأوتيل، مش عاوزة أسمع نفس!

قادت الأم السيارة غائبة الذهن لم تنبس ببنت شفة إلى أن وصلتا إلى الغرفة بالفندق.

التفتت إلى رحمة آمرة:

- اطلبيلنا الغدا لحد ما آخد دوش.

- طيب أطلب إيه؟ قالتها رحمة بصوت خافت.

ردت الأم بنفاد صبر وحِدة:

- أي حاجة!

كانت رحمة تتحرق لتعرف ما دار بين أمها ومدحت بعد أن غادرتهما، وطفقت تعد سيناريوهات للرد على أسئلة الأم حين تنتهي من حمامها.

بينما كانت الأم بالداخل تخفي نشيجها والدمع بصوت انهمار قطرات الماء القوية المندفعة فوق رأسها، كانت أفكارها مشوشة، وذهنها مكبلاً بضبابات وعتامات.

لا أدري ما أفعل وكيف لي بمجابهة الأب بتلك الكارثة؟

تأخر الأم في الداخل أثار قلق رحمة، طرقت الباب:

- ماما إنتي كويسة؟ اتأخرتي قوي، يلَّا الأكل قرب يبرد.

خرجت الأم وقد وضعت عليها روب الحمَّام الأبيض واعتلى رأسها بشكير جففت به شعرها.

وبدا على العينين ما حاولت إخفاءه بالداخل.

جلست تتناول الطعام وساد بينهما صمت مطبق.

حاولت رحمة التحدث فأخرستها نظرة حادة من الأم. بعد الانتهاء من الطعام صنعت الأم لنفسها كوبًا من الشاي وخرجت إلى التراس المطل على النيل، أشعلت سيجارة نفثت دخانها بزفرة حارة، راقبتها والنار تتآكلها، ما أشبه حالي بتلك! قالتها في نفسها.

تتابعها الفتاة والقلق يعصف بها.

"لِمَ لا تتحدث.. تصيح صارخة أو حتى تضربني؟!"

دخلت أمها من الشرفة وقد عقدت العزم على أمر أخفته عن ابنتها، التفتت إليها قائلة:

- إنتي عرفتي الراجل ده منين وإيه اللي بينكم بالظبط؟ وحذار تخبي عني حاجة!

بدأت رحمة في قَص الحكاية من البداية، لم تخفِ عن أمها شيئًا.

كان صوتها يرتعش متوسلًا:

- والله يا ماما مدحت طيب خالص، وهو كان مستني لما ترجعوا ف الأجازة عشان يتقدم ويخطبني، والله ده بيشتغل شغل محترم وهو ابن ناس.

سألتها الأم: بيشتغل فين؟

فأجابت الفتاة بسرعة إمعانًا في التأكيد على أهمية عمله، ثم طلبت الأم رقم الهاتف الخاص به فأخرجت لها الكارت الخاص به، ذلك الذي حصلت عليه يوم الحادث.

نظرت إليه الأم ثم دسته بداخل حقيبة يدها.

أحنت رأسها وبداخلها يكمن كل إشفاق الدنيا ولوم النفس، كيف استطعنا إلقاء تلك الصغيرة وحدها دون حماية من شرور الدنيا؟ إنه ليس خطأها وحدها.

أنا هنام شوية ولما أصحى محتاجين نتكلم شوية.

قالتها واندست في الفراش لتهرب من النظرات المتطلعة إليها بلهفة.

أرادت برهة من الوقت تستعيد به هدوءها واتزان تفكيرها.

أمضت ما يقارب الساعة وهي تتقلب في فراشها قلقًا إلى أن استسلمت أخيرًا إلى نوم عميق.

بدأت الأم في التحرك بسرعة البرق لتنفيذ ما انتوته دون أن تشعر الابنة بما يحاك في الخفاء.

فقد استصدرت الأم قرارًا من الكلية بالموافقة على حفظ نسبة الغياب للطالبة رحمة بدعوى ضرورة سفرها إلى حيث أسرتها لمرض الوالد، مع تعهُّد من الأم بعودتها في الموعد المُحدَّد لحضور امتحانات آخر العام.

وذهبت الأم مع رحمة إلى السكن وقامت بجمع كل ما يخصها من ملابس وكتب استعدادًا للسفر.

لم تقوَ رحمة على المعارضة أو الرفض.

كانت تنزوي يومًا بعد يومٍ وقلبها يحترق شوقًا للغائب، لم يعد يجيب على اتصالاتها بعد أن أخبرها أن ما بقلبه سيظل دائمًا، لكنه لا يقوى على مواجهة الأم بعد أن اتصلت به وهددته بفضيحة في مقر عمله وسكنه.

كان ما كان.. ساقوني إلى محبسي السابق، عدت أجرجر أذيال خيبتي وحرماني من دنياي الجديدة إلى ما كان آنفًا من صحراء جرداء بلا زرع ولا ماء، وهنا المعنى مجازي.

فالصحراء هي القلب الموحش بلا أصفياء، والزرع هو حبي، تلك النبتة التي لم يُقدَّر لها النماء.

والماء إنما هو حريتي وأنفاسي التي كُمِّمَت.

تخيلت أمي أنها بذلك تحميني، تعيدني إلى حظيرة الأسرة كالشاة الضالة خوفًا من التهام الذئب، شُحنت كما تشحن أي بضاعة بمجرد وضع الختم على أوراق البيانات.

لم تخبر أمُّها أباها بسبب عودة ابنته الحقيقي، وإنما أخبرته أنها تشعر بالوحدة وبالحادث الذي وقع له؛! لذا فالصواب كل الصواب أن تعاود البقاء بين أفراد أسرتها إلى أن تنتهي الأم من إجراءات استقالتها من عملها وتعود بالأولاد إلى القاهرة ويبقى الأب في عمله ويجتمع بهم في الإجازات.

أما رحمة فقد بدت كالتائهة لا تدري من أمرها شيئًا.

ذبل لونها وفقدت ابتسامتها العذبة بالإضافة إلى رغبتها في التفاعل فيما

يدور حولها.. انكبَّت على كتبها الدراسية تحاول أن تتابع المتبقي من المناهج استعدادًا للنهائيات.

عادت الفتاة لسيرتها السابقة هادئة كأن الصمت عنوانها، اختفت تلك اللمعة التي صادقت العينين لفترة سابقة.. ساهمة أغلب الأحيان، حتى حين يدعوها الأب للخروج في نزهة تكتفي بهزة موافقة.

إنها ذات الشاة المنقادة.

****

حان موعد العودة لأداء امتحانات آخر العام، كانت تحلم بالعودة وقد اختمرت في ذهنها فكرة لم تتخيلها يوما..

(الهرب)..

أجل.

أريد أن أحيا مع من اختاره قلبي.

كانت ترى سعادتها على بُعد آلاف الكيلومترات، سأعود إليه.. لن يقف بيني وبينه كائنٌ مَن كان.

عادت وحدها على أن تعود الأم بصحبة الأبناء بعد انتهائهم من امتحانات آخر العام.

"سنجتمع معًا يا رحمة مرة أخرى، لن أدعك وحدك أبدًا يا ابنتي". قالتها الأم.

وإمعانًا في حمايتها لم تعد إلى سكن الطالبات المغتربات، بل تقرر أن تنزل ضيفة على بيت العمة حتى تحضر الأم والأخوان للاستقرار نهائيًّا في مصر.

عادت إلى القاهرة، قبل أن تخرج من بوابات المطار حاولت الاتصال بمدحت، لكن دون جدوى.

كانت الروح تتحرق شوقًا لسماع الصوت الحبيب، ولا مجيب.

اجتازت البوابات إلى خارج المطار، سارت عدة خطوات، ناداها صوت يهتف باسمها بحماسة شديدة..

بنات العمة وقد أقبلن عليها مرحبات بحرارة وحب أدخلا إلى القلب بعضًا من الحبور.

- وحشتينا يا شيخة -قالت أميرة صغراهن- حد يقول ما نشوفكيش أبدًا حتى وأنتي بتدرسي معانا ف نفس الجامعة!

ابتسمت رحمة ابتسامة صغيرة، ردت كاذبة:

- ما انتي عارفة كُليتي صعبة أدّ إيه والسكن ومواعيده..

- يلَّا بينا ماما مستنياكي على نار وعاملالك وليمة، وانتي عارفة ولائم عمتك!

ردت بامتنان:

- ليه بس كده ماكنتش عاوزة أتعبها..

- ولا تعب ولا حاجة، قالتها أُمنية وسطى البنات وأقربهن إلى رحمة في السن والصداقة.. بالمناسبة إنتي هتباتي معايا في نفس الأوضة، ده قرار..

إيمان وأميرة مع بعض، وأنا وانتي مع بعضينا، وغمزتها بلؤم يوحي بما يعتمل في نفسها من رغبة في البوح بأسرارها الخفية لابنة خالها القادمة من السفر.

استقبلها البيت في حي الزمالك، إحدى العمارات العريقة المطلة على نيل القاهرة الساحر.

انتابَتْها راحةٌ كبيرةٌ لم تدرِ مصدرها..

ربما للاستقبال الحافل الذي استقبلَتْها به العمة الحبيبة، روح المودة والحفاوة المفتقدة على طول الخط.

دخلت إلى الغرفة المُعَدَّة لها مع أُمنية، كم كان المكان مبهجًا بألوانه وتلك النافذة العريضة المطلة على النيل وأشعة الشمس التي غمرتها كأنما ترحب بالوافدة الجديدة ترحيبًا دافئًا.

بداخلها أحست بالسعادة، لست وحيدة الآن ولا حبيسة الجدران الداكنة والإضاءة الهزيلة كما كان الحال بالسكن.

سرعان ما اندمجت داخل نسيج العائلة، شعور لم يسبق لها الإحساس به، المرح والنكات، حتى حين تنظر العمة شزرًا إلى إحدى بناتها سرعان ما تنقلب الواقعة إلى دعابة يضحك منها الجميع.

كم تمنت لو تركوها ها هنا في هذا المكان الحاني الجميل بمفرداته من أهل وأثاث وجدران!

سرعان ما ربطت الأسرار الصغيرة بين القريبات، فقد باحت أُمنية بقصصها ومغامراتها لرحمة، وألقت الأخيرة بحمل قلبها لابنة عمتها وهي تشعر أنها

ربما تكون ملجأها ووسيلتها الأخيرة للاتصال بحبيبها.

حين ألقت ما في جعبتها للفتاة التي سرعان ما فتحت فاها والعينين حتى خُيِّلَ لرحمة أنها لم تعد تستطيع إغلاقهما مرة أخرى.

- فيكي إيه يا أُمنية؟

ردت أُمنية بصوت هامس أشبه بالفحيح:

- إنتي اتجننتي يا رحمة! راجل بينك وبينه عشرين سنة وكان متجوز وطلَّق.. إنتي أكيد مش واعية ولَّا حصل لعقلك حاجة! خالو عرف حاجة عن المصيبة دي؟

ردت رحمة من فورها وقد ظهر الذعر في وجهها حين ذُكر أبوها:

- لأ لأ، طبعًا لأ، إوعي تغلطي يا أُمنية ولا تُقعي بلسانك قُدَّام أي حد وخصوصًا عمتي بأي كلمة من اللي قولتهالك دي!

أطرقت الفتاة برأسها إلى الأرض:

- طبعًا لا يمكن أقول أي حاجة من دي أبدًا.. بس.. بس إزاي!!!

إنتي لسة ف أولى جامعة، لسة مخلصة مدرسة ومتفوقة والمستقبل قدامك مفتوح.. ليه تعملي كده في روحك؟!

ردت رحمة:

- إنتي بتقولي كده عشان ماتعرفيش هو أدّ إيه إنسان جميل ورقيق وحنين.

ردت أُمنية:

- يارحمة إنتي فاهمة غلط، هو لقى بنت صغيرة مش عارفة الألف من كوز الذرة عايشة لوحدها من غير أهلها..

حبّة حنية هيقلبوا دماغها.. ده لو بجد زي ما بتقولي ماكانش استغل التوهة اللي انتي فيها..

ودخلك دخلة يا ريتني كنت قابلتك ف وقت غير الوقت وظروف غير الظروف!

صمتت رحمة رافضة أن تلقي أُذنًا لكلمات ابنة عمتها.

تابعت أمنية:

- إنتي لسه ماشُفتيش ولا عرفتي الناس وتفكيرها..

إنتوا كنتوا عايشين بعيد طول عمركم وحتى الأجازات اللي بتقضوها هنا كنتم برضه بتتحركوا عيلة واحدة، آمان واحد.. قدامك عمرين على عمرك عشان تفهمي راجل زي اللي بتتكلمي عليه ده.

صمتت رحمة عن الكلام وهي تحترق لعدم قدرتها على الدفاع عن تمثالها الجميل؛ فهي لم تعتد قط الرد أو الوقوف بإصرار للدفاع عن رغباتها أو وجهة نظرها. المعارضة هي الشذوذ عن القافلة وإساءة الأدب، وهي مَن كانت ترى أن الخضوع هو تاج الفخار الذي يجب أن ترتديه كل الفتيات الصالحات.

"كيف لي أن أصل إليه لأخبره أني سأرافقه إلى آخر الدنيا؟" قالتها في نفسها.

تُرى هل ستساعدني أُمنية في مخططي القادم؟

عاشت في منزل العمة هادئة راضية تدرس استعدادًا للامتحان، لم تتمكن من الاتصال بمدحت فهو دائمًا غير موجود سواء في العمل أو البيت.

مرت الامتحانات بهدوءٍ رغم توترها الشديد ألا تحرز النتيجة التي ينتظرها الوالد وهي التي لم تعتد قط خذلانه.

قررت أن تذهب لملاقاة الحبيب لتقول هيت لك، لن يحول بيننا شيء!

لقد أخبرها أن قلبه محرابها وسلام نفسه في القرب منها، أدخل في روعها أن لن تقوم له قائمة في بعدها عنه.

وضعت خطتها.

ستدَّعي الذهاب إلى الكلية للسؤال عن النتيجة، بدلًا عن ذلك ستغدو إلى مقر عمله لتراه وتقر العينان برؤيته.

ارتدت من الثياب ما اختاره لها يومًا، تركت شعرها منسدلًا كما يحبه دائمًا.

بضع نقاط من العطر المفضل له، الآن هي رحمة حبيبته أتت إليه ساعية.

قبلت العمة في جبهتها واستدارت نحو الباب.

وصلها صوت العمة وهي تدعي: ربنا يكفيكي شر طريقك يا بنتي.

أغلقت الباب خلفها وهي تشعر بارتجاف من الرأس إلى أخمص القدمين.

ركبت المصعد ومع كل دور يهبطه كانت دقات القلب تتصاعد حتى تكاد تصم أُذنيها.

أشارت لأول سيارة أجرة: العجوزة من فضلك.

كانت تعلم مكان عمله؛ فقد اصطحبها يومًا هناك، تركها في السيارة وصعد لإنهاء بعض أعمال تتطلب توقيعه.

أوقفت سيارة الأجرة أمام ڤيلا بيضاء صغيرة، نزلت وقدماها لا تكادان تحملانها من الرهبة والتوتر.

التساؤلات تعصف بالنفس، ما الذي أفعله هنا، ما أدراني أنه سوف يقبَل بلقائي ثانية بعد ما فعلته أمي؟

كان تصميمها أقوى من كل المخاوف.

صعدت السلالم، استقبلها باب زجاجي يُفتح أتوماتيكيًّا عليه شعار المكان.

دخلت المبنى، واجهها مكتب عريض جلس عليه اثنان من موظفي الاستقبال.

بأقدام واهنة اقتربت، وبصوت حاولت أن تهدئ من ارتجافه سألت عنه..

الإجابة: "لا والله مش موجود"، عادت فسألت: "هيرجع إمتى؟"

فردَّ أحدهما وعلى وجهه ابتسامة سخيفة: والله مش عارفين، هو في أجازة مفتوحة، ثم تابع فكانت القاضية:

"أجازة جواز، عقبالنا!"

شحب لونها وصمتت، اكتفت بهزة من رأسها قائلة: شكرًا..

استدارت عائدة نحو باب الخروج وهي تدعو الله ألا تسقط على الأرض من فرط الصدمة.

وصلتها همسات الجالسين خلف المكتب:

"ابن المحظوظة، بيعرف يصطادهم منين دول؟ كل واحدة أشد من التانية، وفي الآخر يومين في العسل واقلب على اللي وراها!"

خرجت ودموعها تحجب الرؤية، استندت على إفريز السلم إلى أن وصلت إلى الشارع.

حينها أطلقت لساقيها العنان، كانت تركض بلا وعي، ترتطم بمن يقابلها دون أن تشعر، إلى أن وصلت إلى النيل.. استندت إلى السور الأسمنتي، كانت تشهق بالبكاء كطفل فقد أمه في زحام الكون..

تتلاطمها الأفكار..

تبًّا لي من غريرة جاهلة لا تفقه من الأمر شيئًا! لقد همس لي بأني فتاته، ابنة عمره الماضي وحبيبة القادم..

ألم تكن تلك كلماته: لن يُفتح هذا القلب لسواكِ ما حييت؟!

إذًا ما الذي سمعته!!

أيعقل أن يكذب الجميع لإبعادي عن سعادتي!!

ولكن لماذا؟؟

أم أنها أكبر قصور وهمك صنعتِها بيديك هاتين بل ونصَّبت من نفسك أميرة عليها..

وها هي تنهار من حولك كباقي أحلامك.

إنه عهدك الدائم بالحياة يا رحمة.

أين إنصافُكَ يا الله؟

تبادلت النظرات مع النيل الداكن تشكو إليه خذلانها.

مرت عليها ساعات طويلة وهي على الحال حتى شعرت بأن ساقيها لم تعدا تستطيعان حملها..

كفكفت دمعها وأشارت لسيارة أجرة عائدة إلى بيت العمة.

وحين دخلت جاءها صوتُ عمتها: اتأخرتي ليه يا بنتي قلقتيني عليكي؟ فيه أخبار عن النتيجة؟

تصنعت ابتسامة وهي تدخل إلى المطبخ حيث كانت العمة:

- لأ يا عمتو لِسَّه أسبوع.

- طيب يلَّا ساعديني نفرش السفرة، الكل بيزن من ساعة وأنا اللي مصبراهم لحد ما ترجعي.

سارت الحياة في منزل العمة على نفس الوتيرة، وحدها أُمنية كانت تعلم أن رحمة ليست على ما يُرام.

إنها دائمة الصمت تتحاشى نظرات الأعين خوفًا من افتضاح احمرار وانتفاخ العينين من بكاء الليل، استسلمت للرقاد والنوم طيلة النهار..

والسهر أمام النافذة، تنظر إلى النيل، تبث إليه لوعة الخديعة وانهيار الحلم.

مرت الإجازة ولم يتبقَّ سوى شهرٍ واحدٍ ويعود الجميع إلى مقاعد الدراسة.

فاجأتها أُمنية صبيحة أحد الأيام بفكرة نالت استحسانها:

- إيه رأيك لو ننزل نشتغل الشهر اللي فاضل ده تدريب؟ ليا واحدة صاحبتي باباها عنده مكتب سياحة، تعالي نروح نتدرب بدل قعدة البيت اللى مافيش من وراها إلا الأكل وقعدة السراير.

ردت رحمة:

- بس أنا عمري ما اشتغلت الشغلانة دي!

جاء رد أُمنية:

- يعني إنتي شايفاني أنا اللي مقطعة المكاتب قوي؟!

بقولك تدريب تدريب، افهمي.. هُمَّا اللي هيعلمونا من غير فلوس، واحنا يبقى اسمنا عملنا حاجة بدل القعدة دي.

قالت رحمة: لازم أستأذن بابا وماما الأول.

ردت بنت عمتها:

- أنا قُلت لماما وهي هتكلمهم النهارده في التليفون وهتقنعهم، هي تعرف أهل صاحبتي كويس وبتتعامل مع باباها في رحلات الحج والعمرة، ماتخافيش هتقنعهم انتي متعرفيهاش في المواضيع دي!

أمل جديد

بالفعل قامت العمة باللازم، وافق والدا رحمة وبدأت الفتاتان بالاستعداد لحياة العمل الجديدة، وقد أضفت الفكرة بعض البريق في العينين الذابلتين للفتاة المنكسرة.

كانت شركة السياحة في شارع عدلي وسط البلد.

شقة كبيرة بداخل إحدى العمارات العتيقة عريقة المنظر.

دخلتا من الباب وقد استقبلتهم رائحة عطرية أشبه برائحة الفواكه.

جدران بيضاء مرتفعة، أثاث روستيك أشاع روح الأناقة في المكان، مع لمسات جمالية واضحة في المعلقات من تابلوهات طغى عليها اللون الأزرق باختلاف درجاته، وقازات نُسقت بها باقات الورد الطبيعي تسيدت الموقف بها فروع الچيبسفيل الأبيض المتناثرة وأعواد الزنبق الأبيض بعطرها الفواح.

انشرح صدر الفتاتين للمكان وارتسمت ابتسامات أضاءت الوجنات.

بوجه مشرق بادرتهم موظفة الاستقبال:

- أقدر أساعدكم بإيه؟

ردت أُمنية: فيه معاد مع أنكل محمود، أنا أُمنية.

طيب ارتاحوا وأنا هبلغه حالًا، وسارت من فورها إلى داخل أحد الأبواب المغلقة بعد أن طرقت مستأذنة.

غابت لبضع دقائق ثم عادت قائلة: اتفضلوا، مستر محمود في انتظاركم.

تقدمت الفتاتان بهدوء وقد اجتاحت رياح الحماسة الأجواء.

وبالداخل استقبلهما محمود العطار، والد جنة صديقة أمنية، بترحاب وطيبة أب جميل.

بعد التحية جلس الجميع ليشرح لهما مستر محمود - كما يلقبه جميع مرؤوسيه - طبيعة التدريب وكيفية التعامل، وبعد أن انتهى استدعى موظفة الاستقبال البشوشة التي استقبلتهما في الخارج ببعض التعليمات. توجه الجميع إلى الخارج.

استلمت كل واحدة من الفتاتين المهمة الموكلة إليها وتعرفت كل منهما عن المسؤول الذي ستتدرب تحت قيادته.

مدام إجلال، المسؤولة عن التسويق والحجوزات للسياحة الداخلية، سيدة في أواخر الأربعينيات، لطيفة مع مسحة من الحزم، هكذا رأتها رحمة.

نادتها مدام إجلال: تعالي يا رحمة أعرفك هتعملي إيه.

أما أُمنية فقد كان المسئول عن تدريبها الأستاذ ريمون إسكندر..

من أوائل العاملين في الشركة ويكاد يكون أول العاملين بها، تربطه بمحمود العطار مدير الشركة صداقة عمر وزمالة دراسة..

ممتلئ، بشوش الوجه، دائم التهريج وإطلاق القفشات مع الجميع.

كان المكان مريحًا للنفس مُبشرًا بفترة تدريب لطيفة قبل بداية العام الدراسي الجديد.

سارت الأيام على نحو طيب، عادت الابتسامة الصبوحة ترتسم على وجه رحمة، بدأت تستعيد مرحها وهدوء نفسها.

من وقتٍ لآخر تسودها لحظات من الحزن والوجوم سرعان ما تلقي بها بعيدًا وتعاود رسم الابتسامة وكأن شيئًا لم يكن.

سرعان ما بدأت تحب عملها، وأحبها من حولها للطفها الشديد وطيبة قلبها وحسن تعاملها مع الجميع.

انتهت فترة التدريب وغادرت الفتاتان المكان بوداع حار ودعوة مفتوحة للعودة متي شاؤوا.

بدأ العام الدراسي الجديد وقد أخذت الحياة شكلًا مغايرًا لما كان..

فقد عادت الأم واستقرت بالأخت الصغرى هنا والرضيع عصام آخر العنقود.

عاشت رحمة وقد سكنها الأمان بوجود الأم والأخوين إلى جوارها.. بيت وأسرة.

غرفتها التي قامت بتصميم كل ركن من أركانها بأدق التفاصيل، من

حوائط بيضاء تعلوها كرانيش رسمت عليها بفرشاتها، حين تسلقت سلمًا خشبيًّا مما يستخدمه عمال البياض تحمل ألوانها في يدها.. وضعت بالألوان زهرات وردية صغيرة بأوراق خضراء تلتف فيما بينها وتمتد على مدار الغرفة كأنها لبلابة يتساقط أوراقها أعلى الحوائط بشكل عشوائي دون أن يتنافى مع الذوق الرفيع.

فِراش ناعم بلا جوانب بخلفية مخملية وردية مبطنة، بجواره كومودينو، وفي الجهة المقابلة مكتب صغير الحجم أبيض اللون رُسمت على أدراجه نفس الزهرات الصغيرة، اعتلته مكتبة متوسطة الحجم.. إلى جانبه تقبع خزانة ملابس مكونة من جزأين يفصل بينهما مرآة بالطول، ويتوسط الغرفة شرفة صغيرة تنسدل عليها ستائر من الدانتيل الأبيض.

وافترشت الأرض قطعة من جلد الجاموس الأسود المرقع باللون الأبيض، وعلى الجدران عدد من تابلوهات الحائط غاية في الرقة والجمال.

كم سعدت حين أتمت عمل ديكورات غرفتها البيضاء.. أخيرًا ستكون لي صومعة تخصني أنا وحدي.. أفكاري، موسيقاي التي أحبها..

عاشت عمرها تتقاسم غرفتها مع الأخت الأصغر (هنا) المزعجة، وحين أقبل عصام إلى الدنيا احتوته غرفة الأم كما احتواه حضنها، وإن لم يخلُ الأمر من سويعات يكون ضيفًا على غرفة البنات بصراخه المتواصل حين ترجو الأم بضع ساعات من النوم والراحة.

حان الآن الوقت لبعض الخصوصية التي لم تحصل عليها يومًا.

أقبلت رحمة على الدراسة بروح جديدة استعادت دنياها القديمة، سادت ظلال السكينة والنقاء.

****

مرت سنوات الدراسة الجامعية على خير ما يرام وتخرجت رحمة من الجامعة بتقدير جيد، وبدأت مرحلة جديدة كانت تعد لها فيما بينها.

لقد أنهت الدراسة التي اختارها لها، الوالد والآن سوف تحقق حلمها هي.

خرجت على أمها صبيحة أحد الأيام برغبتها وقرارها:

- ماما، أنا فكرت كتير وقررت أنا عاوزة أعمل إيه.

ردت الأم:

- خير يا بنتي اللهم اجعله خير؟

- ماما، أنا قررت أدرس فن تشكيلي القسم الحر لكلية فنون جميلة ف الزمالك..

بكرة هاروح أسأل على التفاصيل.. وبما إنها دراسة مسائية فأنا قررت أرجع أشتغل في مكتب عمي محمود العطار والد جنة صاحبة أُمنية بنت عمتي..

هو قالنا إن مكاننا في الشركة موجود لو قررنا نرجع نشتغل هناك تاني.

ردت الأم بتهكم:

- ويا ترى أخدتي رأي بابا في القرارات دي ولا موافقته تحصيل حاصل؟

أجابت رحمة:

- هو مش أنا خلَّصت دراسة وطبيعي هاشتغل بدل القعدة في البيت لا شُغلة ولا مشغلة؟

دا غير إن دراسة الفن كانت الاختيار الأول ليا وغيرتها عشان رغبتكم إنتم.. يبقى من حقي أعيش حلمي بطريقتي.

وكان القرار الذي لا رجعة فيه، أخبرت الوالد برغبتها، لم يجد مبررًا للرفض إنما كان لا بُدَّ من بعض النصائح..

مثل: أليس من الأفضل أن تجدي عملًا يتناسب وشهادتك الجامعية؟

باب الارتقاء والتميز أمامك.

ابتسمت ابتسامة لطيفة وكان ردها:

"إن التميز والارتقاء هو ما أسعى إليه الآن وأنا أبدأ بتحقيق حلم حياتي المؤجل."

قَبِل الوالد قرارها بهدوء وهو يشعر بما يحتوي مضمون كلامها من لوم مهذب نتيجة اختياره لمسار حياتها الأول.

تابعت كلامها:

- حيث إن دراسة الفنون مسائية، أنا نويت - بعد إذنك - أرجع أشتغل في شركة عمي محمود العطار والد جنة صاحبة أُمنية بنت عمتي. هو كان رحب بينا لما كنَّا بنتدرب عنده في الأجازة ووعدنا إننا نشتغل عنده لما نخلص،

ولما اتصلت الأسبوع اللي فات بالسكرتارية بتاعته وبلغتها إني عاوزة أرجع أشتغل تاني بس دائم مش تدريب كلمتني امبارح وقالتلي أجهز أوراقي والفيش وصور وأروحلهم.

وبكرة بإذن الله أروح أخلص الورق وأطلع عليهم.

هز الأب رأسه موافقًا وإن لم يبدُ عليه الرضا التام.

في صباح اليوم التالي استعدت للذهاب وقد اكتسى وجهها ملامح سعادة وثقة بالنفس لم تختبرها خلال سنوات عمرها السابق، انتقت ثيابها بفرحة طفلة ليلة العيد وحرصت على أن يكون المظهر جادًا مع لمحة أناقة شبابية.

استودعت أمها وأبوها وطبعت قبلة فوق جبين الصغير، حاولت إيقاظ هنا لتتمنى لها يومًا ناجحًا لكن كانت الأخيرة تغط في سبات عميق.

غادرت إلى عملها الجديد بحماس فاق الحد.

استلمت عملها كمساعدة لمدام إجلال التي تعاملت معها بحنو أم وجدية رئيسة.

سعت رحمة للتعلم بكل همة ونشاط وشجعتها إجلال، وخلال فترة ليست بالطويلة نالت احترام الجميع لما أبدته من كفاءة ونجاح.

تزامن مع العمل الالتحاق بالقسم الحر في كلية فنون جميلة قسم تصوير..

وهناك وجدت المتنفس الحقيقي لأحلامها مع الألوان، كانت كل لوحة بمثابة دنيا تحياها بتفاصيلها، كأنما هي واللوحة نسيج واحد.

كان وجودها الأثيري على الدوام ركن أصيل بداخل لوحاتها..

أبراج الحمام دنياها، سماء زرقاء تغمرها أسراب الحمام العائد إلى أعشاشه، مع مغيب القرص البرتقالي الملتهب وراء البيوت الطينية ملقيًا ما تبقى من ضيائه على الأسطح التي يرقد فوقها جريد النخل الجاف.

تنفصل عن كونها المادى إلا حين توجَّه إليها ملاحظة تخص التكنيك المتبع في التلوين أو وجود خطأ ما في وضع النور والظلال، تنتبه أنها في محيط حقيقي يشاركها به آخرون.

مرت الأيام بهدوء وسلام.

وذات صباح استدعاها الرئيس محمود العطار إلى مكتبه، دخلت وعلى وجهها نظرة تساؤل وبذهنها تدور أسئلة لا حصر لها..

قابلها بابتسامة أبوية: ادخلي يا رحمة، مالك عاملة زي الفار اللي دخل مصيدة كده؟

ردت: أبدًا يا ريس أنا كويسة أهو.

قال لها: ولسة لما تعرفي أنا طلبتك ليه. يا رحمة، في خلال الست شهور اللي فاتوا كنتي مثال للاجتهاد والالتزام، وده خلاني أتكلم مع مدام إجلال إننا عاوزين نسلمك قسم الرحلات الداخلية والحجوزات للجروبات اللي جاية من برة، ودي مسؤولية كبيرة ومش سهلة أبدًا، ده غير إن فيها سفر وتعامل مباشر مع السياح سواء مصريين أو أجانب..

في الأول مش هتكوني لوحدك، أنا أو مدام إجلال هنبقى معاكي لحد ما نحس إنك قدها، وأنا أعتقد إنك هتكوني عند حسن الظن وأكتر..

وطبعًا هيكون فيه زيادة في المرتب.

ماسمعتش رأيك يعني؟

أجابت: هقول إيه دي فرصة ماكنتش أحلم بيها، بس موضوع السفر ده معتقدش بابا ممكن يوافق عليه خالص.

ردَّ قائلًا: سيبي إقناع بابا على الله وعلى عمتك، وأنا برضو هكلمه. دي فرصة، خصوصًا إنك لسه في أول عمرك، لسه ما ارتبطتيش، وتابع يداعبها بالكلام: ولَّا إنتي مرتبطة واحنا مانعرفش؟

ردَّت بابتسامة خجلى: لا والله أبدًا!

ردَّ بحسمٍ: يبقى خلاص مبروووك عليكي المنصب الجديد.

الله يبارك ف حضرتك.

قالتها واستدارت مغادرة.

كانت على تمام العلم برد الأب مسبقًا، فوأدت الفرحة في القلب قبل انتشارها..

لكنها كانت في غاية السعادة لآراء رؤسائها في التزامها واجتهادها.

الغريب

انتهى موعد العمل فغادرت متجهة إلى حيِّ الزمالك حيث كلية الفنون الجميلة.

توقفت بالسيارة جانبًا لتناوُل غدائها بأحد الكافيهات المنتشرة هناك.

انتقت طاولة مطلة على الشارع، كانت تستمتع بجمال الأشجار العتيقة، تتأمل جمال الجذوع والأخاديد المحفورة على لحائها كوجه عجوز انتحى جانبًا واستقر بسلام.

علامة من علامات الزمن الماضي.

كم يتحدث الجميع عن طرب الزمن الجميل وأناقة الزمن الجميل واحترام الزمن الجميل..

تُرى لِمَ لم أولد في الزمن الجميل؟

استرعى انتباهها أصوات الأجراس المعلقة على المدخل..

لمحته يدخل من الباب متجهمًا كعادته..

وسيم المحيا أسمر اللون، متوسط القامة، نحيل وجهه، يشبه الفرسان بشاربه وذقنه المشذبين، يبدو كمن يحمل أعباء الدنيا وراء ظهره.

أعجبها شكله يوم التقته أول مرة بداخل المرسم، إنه أحد المشاركين معها بنفس القسم.

بحث بعينيه عن مكان للجلوس في المطعم فلم يجد.

لمحها تجلس وحدها فاقترب منها محييًا:

- مساء الخير، أنا عارف إنك من مجموعة النشاط الحر، ممكن أشاركك الجلوس؟ أوعدك إني مش هتطفل عليكي، مجرد رفيق طعام لا أكثر.

أومأت رأسها بالقبول حيث إن فمها كان مشغولًا بمضغ الطعام، التقطت منديلًا، مسحت فمها وقالت:

- اتفضل.

طلب ما يريد والتفت عبر الزجاج نحو الشارع، تناول وجبته.. صامتًا تمامًا.

بعد أن انتهى، نظر إليها وأحنى رأسه بالشكر وغادر.

أثار دهشتها تصرُّفُه، فبرغم اقتحامه طاولتها لم يكلف نفسه عناء تبادل كلمة شكر مستحقة.

ولكن ما يعنيها منه؟ فليذهب إلى حال سبيله، وتبقى هي مع سعادتها وقلقها من ردود أفعال الوالد على العرض الجديد الرائع في العمل.

حان الموعد فقامت من فورها باتجاه الكلية.

أخذ الجميع أماكنهم في المرسم.

لمحت رحمة ضيف المطعم ينتحي جانبًا بعيدًا، وبدأت تلاحظ أنه يختلف عن البقية؛ فهو يراقب الجميع ولا يشترك في الحوارات أو يتساءل كما هي أحوالهم جميعًا.

اقتربت منها فتاة تماثلها تقريبًا في العمر، بادرتها الحديث:

- أنا صفا.. الدكتورة صفا زي ما الكل بينادوني، بس إنتي قوليلي صفا وبس.

ردت رحمة:

- وأنا رحمة وبس.

تابعت صفا الحديث:

- أنا حاسة إني لايصة. أنا بحب الرسم جدًّا بس بمجرد ما أمسك الفرشة أحس إني مش قادرة أعمل حاجة..

وفي البيت شايفين إنى بضيِّع وقت مهم لازم أكون فيه مركزة في دراستي..

أنا مبحبش الطب ولا كنت عاوزة أدخل الكلية، بس العيلة كلها دكاترة ويا ويل اللي يشت عن الطريق!

دخل الدكتور إلى القاعة فانقطع الحديث واعتدل الجميع كل واحد أمام اللوحة الموضوعة أمامه.

انتهى العمل واستعد الجميع للخروج..

وهنا ارتفع صوت الدكتور قائلًا:

- قبل ما تمشوا عاوز أعرفكم على أحد أعظم أساتذة فن التصوير..

الدكتور آدم الورداني، بس هو مع الأسف سابنا من سنين وأصبح الآن من كبار أساتذة الفنون في جامعة ألبرتا بكندا، وهو هنا في زيارة نتمنى إنها تطول شوية ويبقى أستاذ زائر يستفيد منه طلبة كلية فنون جميلة سواء الدارسين في الكلية أو المشاركين في البرنامج الخاص بالدراسة الحرة.. أهلًا بيك دكتور آدم!

وسط تصفيق الحضور انحنى دكتور آدم محييًا ولم تفتر شفتاه سوى عن ابتسامة مقتضبة وكلمة شكرًا.

غادر الجميع..

وودعت رحمة صفا وسارت إلى سيارتها وانطلقت عائدة إلى منزلها في حي العجوزة.

دخلت الشقة التي وجدت أغلب أنوارها مطفأة إلا من بعض الإضاءات الجانبية، ثم بدأ الصوت يصل إليها من بلكونة الشقة، وصل إلى سمعها صوتُ عمتها الحبيبة فأدركت أن الريس محمود العطار قد تحدث مع العمة وترك لها مهمة إقناع الوالد بالعرض الجديد ومميزاته.

كان قلبها يلهث بالدعاء والرجاء.

دخلت غرفتها، وضعت حقيبتها، وعادت إلى الحشد الموجود في البلكونة.

ألقت السلام على الجميع واحتضنت عمتها بفرحة شديدة قائلة:

- وحشتيني قوي يا عمتو!

ردت العمة:

- لو وحشتك صحيح كنتي خطفتي رجلك وجيتي شُفتيني!

- حقك عليا والله، أنا عارفة إني مقصرة بس ما بين الشغل والكلية مفحوتة والله يا عمتو..

العمة: أنا وصلتني أخبار جميلة عن شطارتك في الشغل، عمك محمود العطار بيقول عليكي كلام جميل وبيفكر يسلمك شغل أهم براتب أكبر.

ادعت رحمة الدهشة وكأنها أول مرة تسمع الكلام، ألقت نظرة على وجه الوالد الذي أطرق صامتًا يفكر.

هتفت رحمة:

- أنا هادخل أعمل شاي، حد يحب أعمله معايا؟ لم ينطق أحد، فبادرت أبوها: تحب أعملك معايا شاي بالنعناع يا بابا؟

هز رأسه بالموافقة ولم يعقب، كان ذهنه يتحرك بسرعة البرق.

"إنَّها فرصة ممتازة للبنت في مكان نعرف أصحابه وهم ناس محترمين.

طيب لو جالها عريس؟" وتحاوره الإجابة: "مش لما يبقى يجي العريس!"

بداخله شعور خفي بالذنب تجاه رحمة.

لقد انصاعت لرغبته مقابل شغف عمرها، ارتادت الكلية التي كان يحلم لها بها.

لا لم يكن حلمها، كان الحلم حلمه، أراد الصبي الذي يتابع مسيرة الأب، الاسم مسبوقًا باللقب سعادة السفير.. فإن كانت فتاة فليكن!

لا فرق! هو مستقبل رائع وباب رفعة مفتوح على مصراعيه.

رضخت دون نقاش، دون سعادة، اختفت السعادة من العيون وبقي الالتزام دون روح.

وها هي الفرصة لتحقق ذاتها، فكيف لي أن أقف في وجه سعادتها للمرة الثانية وربما الأخيرة؟!

عادت حبيبة تحمل الشاي الساخن يفوح منه أريج النعناع الأخضر، ناولت والدها الكوب وتناولت كوبها وهي تحاول أن تستخلص القرار من ملامح وجه الأب المستغرق في التفكير..

حين رفع رأسه نظر إلى رحمة نظرة اختلط فيها الحب بالخوف والقلق، وقال:

- أنا ربيت رحمة على أسس صحيحة، ومتأكد إن بنتي هتكمل طريقها على نفس الأساس.

الفرصة اللي جايالك يا رحمة فرصة ممتازة، وزي ما فيها مميزات عليها محاذير..كونك تتحركي ف سفر وتتعاملي مع ناس خلفياتهم ربما مختلفة،

عاداتهم وتقاليدهم، عرب كانوا أو مصريين أو أجانب، ده يقلق أي أب ويشغل باله.. بس أنا متأكد من بنتي وعارف إنها هتبقى ظل ليَّ على الطريق.

أنا موافق يا رحمة، وخليكي متأكدة إن بابا دايمًا موجود وواقف ف ضهرك، وزي ما دايمًا بقولك بابا بيقصر الطويلة مهمًا كانت طويلة!

اندفعت رحمة بداخل أحضان والدها وهي تبكي من فرط السعادة.

البراح

كم أنت كريم يا الله! بداية طريق لم أكن أتوقعه.. أنا أهيم في براحي المنشود.

سارت الحياة على نحوٍ أجمل مما كانت تحلم، ها هي في عملها تضع قدمًا أمام الثانية بحذرٍ شديدٍ في البداية، تلاقي كلمات التشجيع من هنا وهناك فتمد الخُطى بثقة أكبر وحماسة أشد.. وعلى الصعيد الآخر كانت تعيش أزهى أيام حياتها في دنيا من الألوان نثرتها كما تمنت أن تحياها يومًا..

أقمارٌ لؤلؤية، وتلالٌ ماسية، وفتاة ترفل في غلالة ناصعة البياض لا تكاد تتلمس قدماها الأرض، تحوم بين نجمات المساء..

وأخرى هي سرب طيور مهاجرة نحو البعيد بحثًا عن الدفء..

بين أحضان أشعة شمس لم تلملم أشعتها راحلة هربًا من غضبة الشتاء وقسوته.

أحد أيام الشتاء المبتلة بنزيف المطر المنهمر، وأثناء رحلة العودة من الزمالك إلى العجوزة لمحته واقفًا يجاهد محاولًا إيقاف سيارة أجرة دون جدوى. راقبته لبضع دقائق إلى أن قررت أن تأخذ المبادرة. اقتربت منه بالسيارة وفتحت زجاج المقعد المجاور منادية:

- دكتور آدم.. دكتور آدم!

أحنى رأسه ممعنًا النظر إلى راكب السيارة..

بادرته: اتفضل اركب يا دكتور، مش هتلاقي حد يقف في الجو ده.

فكر لثوانٍ قليلة، كان يعلم أنها محقة.

فتح باب السيارة وركب إلى جوارها قائلًا:

- تاني مرة أتطفل عليكي وأنا لا أعرفك.

ردت:

- أنا أعرفك وده سبب كافي، ودي أقل مساعدة ممكنة لأستاذ كبير زي حضرتك. الموقف لا يحتمل الانتظار تحت السيل ده.. العربية موجودة ومعنديش معاد هتأخر عنه، يبقى بالمنطق الوقوف لحضرتك مش موضوع كبير أبدًا.

دكتور آدم، حضرتك رايح فين؟

- شارع طلعت حرب وسط البلد، المرسم بتاعي هناك.

قادت السيارة وعاود صوت "چوش جروبان" العميق استرسال غناء أغنيات عيد الميلاد.

لمحت خيال ابتسامة مصاحبة لتعبير تعجب على الوجه..

تمتم بكلمات الأغنية مصاحبًا لها، بعد وهلة أدرك أنه تخلى عن تحفظه حين لمح ابتسامتها.

- أُحب صوت چوش جروبان.

قالها وكأنه يجتر ذكرى قديمة سعيدة.

وتابع مخاطبًا إياها دون أن ينتظر منها الرد: لم أعتقد أن له متابعين هنا.

ردت رحمة:

- صوت قوي جميل، ينساب برقة فيأسر القلب.

- الغريب اختيارك لأغنيات عيد الميلاد!

ردت رحمة وقد وصلها ما أشار إليه:

- أغنيات عيد الميلاد في هذا الوقت من العام تثير في قلبي سعادة الأطفال بجمال لفات الهدايا بالأشرطة الذهبية والأجراس المعلقة في شجرات عيد الميلاد وعربة بابا نويل.. إنها الأعياد، السعادة والآمال بالعام الجديد.

لا ارتباط بينها وبين التوجه العقائدي..

أتحدث فيما يخص مشاعري ومعتقداتي.

آدم: كنت أرقب أعمالك من ضمن بقية الأعمال، إنها مختلفة عن البقية؛ ضربات فرشاتك تصارع أحيانًا، وتنساب بهدوء انسياب الدموع أحيانًا أخرى..

وكأن بداخلك قوتين تتصارعان إلى أن تجهد إحداهما الأخرى، فتنسحب وتكون الغلبة للحالة الأقوى..

كان هناك دائمًا سؤال يطوف ببالي: ما الذي تشكِّله أبراج الحمام من خصوصية شديدة بداخل رحمة الشرقاوي؟

ردت قائلة: أبراج الحمام هي البراءة والبساطة في أجمل معانيها..

- والحمام كائن جميل طيب، يتميز بصفاء الروح والحرية المطلقة.. ألا يكفي هذا المعنى ليكون عنوانًا للأمل في أي مكان على الأرض؟!

ابتسمت رحمة وأجابت: أعلم أني أخترق العديد من أساسيات الفن، ولكنها روح انطلقت رافضة أي ترويض من شأنه أن يحدها بحدود وقوانين.

كانت السيارة وصلت إلى شارع طلعت حرب، وكانت هي في انتظار إرشاداته إلى أين الذهاب.

التفت إليها قائلًا: فيه مكان لطيف هنا، تسمحيلي أعزمك على فنجان من الكاكاو الساخن لنتابع الحديث؟ وتبقى فرصة أشكرك على الرحلة الجميلة مع چوش جروبان.

اعتذرت بأن الوقت قد تأخر ولا بُدَّ من عودتها إلى البيت خشية قلق الوالد والوالدة.

ردَّ: إذًا فنحن على موعد مقبل لنكمل شرح وجهة نظرك ورؤيتك الخاصة للرسم.

أومأت برأسها وابتسامة مشرقة أضاءت وجهها الناعم، فبادلها التحية بانحناءة رافقتها نظرة نفذت حتى أعماقها.

تابعت طريقها إلى المنزل وبداخلها سرى تيارٌ باردٌ أطاح بهدوئها فتصلبت أطرافها على عجلة القيادة وفقدت تركيزها..

لم تدرِ كيف وصلت إلى المنزل حتى وجدت نفسها أمام باب الشقة.

ألقت السلام وأسرعت إلى غرفتها، أغلقت الباب خلفها واستلقت على الفراش تحاول أن تتمالك نفسها من الارتجاف.

ما الذي يحدث؟ ماذا ألمَّ بي؟

طرقت أمها الباب ثم دخلت قائلة:

- رحمة حبيبتي، إنتي كويسة؟ مالك يا قلبي؟!

ردت رحمة بصوت ضعيف:

- مهدودة يا ماما، الشغل والمرسم والبرد والمطرة.. خلاص مش قادرة!

ردت الأم: لا فوقي كده، أنا عاملالك شوربة عدس بالزبدة وتوست محمص وفراخ مشوية.

رفعت رحمة رأسها وتخيلت شكل صينية الطعام، فابتسمت ابتسامتها الحلوة قائلة:

- الله يا ماما ريقي جري على كلامك.

أشفقت الأم عليها فقالت:

- بصي يا ست البنات، على لما تقلعي هدومك وتغسلي وشك من الكحل اللي سايح تحت عيونك هجيبلك الصينية هنا تاكلي وتنامي على طول.

****

مرت عدة أيام كانت تلتقي بالدكتور آدم للمحات بسيطة، حارت في الأمر، كان يمر بها فلا يلتفت وكأنه لا يعرفها، لم تدرِ ما الخطأ الذي اقترفته!

أثار الموضوع ضيقها لبعض الوقت، ثم ما لبثت أن تجاهلته وألقت بالموضوع جانبًا.

بدأت إجازات منتصف العام ووصول وفود السياح من مختلف الأنحاء. كانت رحمة أشبه بالدينامو، تتابع ترتيبات حجز الوفود سواء رحلات جوية أو بأتوبيسات الرحلات، حجز الفنادق والمزارات، والاطمئنان على راحة وسعادة الجميع. بذلت مجهودات استهلكتها تمامًا حتي تكون عند حسن ظن من رشحوها للعمل، ونالت بالفعل تقدير الجميع.

تغيبت عن دروس الرسم خلال تلك الفترة مع حصولها على الإذن من الأساتذة.

وعادت أخيرًا لبراح أنفاسها حين وجدت نفسها أمام حامل اللوحات الخشبي والمساحة البيضاء تطالعها باشتياق وكأنها تخاطبها:

"أين كنتِ ولِمَ كل هذا الغياب؟"

فجأة..

وجدته أمامها.. صامتًا كتمثال.. وتلك النظرة النافذة تخترق كيانها يحوي بداخلها ألف ألف سؤال..

ابتسامة باهتة رسمتها، بداخلها مشاعر متضاربة وكلمات تخشى أن تطلقها فتتلعثم.

كان المرسم شبه خالٍ، فما يزال الوقت مبكرًا، لكنها اشتاقت إلى المكان!!

أحبت أن تختلي بنفسها مع صرير أخشاب المكان عند وقع خطواتها عليه.

رائحة الألوان مختلطة برطوبة الجدران.. قط لم تتوقع حضوره باكرًا، كما هي عادته دائمًا الدخول إلى المرسم بعد الجميع لمنع التدخين بالداخل، فمبسم غليونه لا يفارق شفتيه إلا بالداخل، حتى إن بقية الحاضرين تمازحوا يومًا قبل دخوله أنه لا يستطيع مفارقة شفتي حبيبته ساعة بأكملها، كناية مستترة عن الغليون.

لكنه الآن أمامها بلا غليون، يبدو مرهقًا.

بادرها السؤال:

- أين كنتِ؟

ابتسمت مرحبة:

- أهلًا دكتور آدم، مشاغل في العمل وضغوط شغل.

لم يبتسم، وإنما ازدادت نبرة الحدة في صوته حتى إنها تلفتت يمنة ويسرى لتتأكد أن أحدًا ما لا يتابع حديثهما.

- الفن هو حياتك وروحك..

روحك بدون الإحساس اللى بيوصّلك بالرسم هي روح ميتة ماشية على الأرض عمرها ما تؤدي أي عمل بإجادة حتى لو فنيتي كل مجهودك فيه!

غامت عيناها برقائق دمعية غشت مقلتيها..

وبداخلها أصوات تصرخ تود لو تلقيها في وجهه..

ما كل هذه القسوة!!

ما شأنك بي؟؟

ما الذي تعرفه أنت عن الروح وانسحابها وترك الجسد يحيا بلا أنفاس ولا إحساس..

ودت لو ألقت عليه أقصى اللعنات ليعيش الآلام التي سكنتها منذ وعت معنى الحياة.

أدرك من فوره حين لمح دموعها أنه تمادى في هجومه عليها..

واستشعر شدة وقع كلماته، فأطرق واجمًا يتمتم باعتذار.

وصل صوته إليها خفيضًا:

- لم أقصد قط، لكنني.. افتقدت وجودك!

نطق بها وغادر. لم يحضر الدرس، وبقيت هي ساهمة لا تستطيع التركيز في اللوحة الموضوعة أمامها.

مر الوقت بطيئًا ولم تكن النتيجة مرضية بالنسبة لها، جمعت أشياءها وغادرت المرسم سريعًا، أقصى ما كانت تتمنى أن تصل إلى البيت وتستلقي على فراشها راجية بعضًا من الراحة والهدوء النفسي لتقييم ما حدث خلال يومها.

اعتراف

وصلت إلى سيارتها وفوجئت به يقف في انتظارها.. تسارعت أنفاسها وتعالت دقات القلب، انه بانتظاري.. تُرى أتستمر وصلة التعنيف؟

إنها لن تحتمل كلمة أخرى.

بادرها باعتذار رقيق قبل أن تبدأ بالكلام:

- آسف سامحيني، بلغ بي القلق عليكي مداه وأنا ما أعرفش عنك أي حاجة غير اسمك.

استمر صمتها وهي تراقبه وهو يعيد إشعال غليونه، رفع عينيه وهو ينفث الدخان من بين شفتيه وسألها:

- ممكن توصليني؟ بقالي مدة مستني تاكسي ولسة مجاش.

ابتسمت وهي تلمح بوادر اعتذار مستترة:

تحت أمرك، اتفضل..

ركبت السيارة وهو إلى جوارها يفتش في مجموعة الأسطوانات الموضوعة إلى جوارها، وسألها:

- بتسمعي چوش جروبان لسه؟

ردت بضحكة صافية:

- لأ، رق الحبيب للست كوكب الشرق.

نظر إليها وهو يخاطب نفسه: "كم أنتِ مختلفة، واختلافك محير!"

رسومات سيريالية، ألوان قوية.. وفي ذات الوقت شديدة النعومة..

ملابس بوهيمية مع لمسة أناقة واضحة..

سلوك متحفظ إلى أقصى الحدود، وبساطة فطرية لطفلة في العاشرة من عمرها..

ذوقك في الموسيقى رائع، خاطبها قائلًا:

- من أنتِ يا رحمة الشرقاوي؟

بهدوء مصطنع وهي تحاول السيطرة على رعشة صوتها جاوبت:

- أنا هي التي تراها أمامك الآن! لك حرية تكوين رأيك الخاص بناء على ما تشعر به، لا ما أقوله أنا..

ومما أرى من طبيعتك ومراقبتك لأفراد المرسم.. أنت لا تأخذ بكلام أحد، إنما تقرر لنفسك بنفسك طبيعة كل منا.

تلعثمت تستدرك كلامها:

- أعني في الرسم طبعًا.

وأكملت مازحة:

- أنا هادئة أثناء العمل ولكني أيضًا قوية الملاحظة.

ضحك ببساطة قائلًا:

- ولماحة كمان..

طيب كان فيه دعوة على فنجان كاكاو من المرة اللي فاتت، والآن حان موعدها..

لن أقبل بالرفض، اتفضلي هنركن في أي مكان قريب من الإكسلسيور وتعالي نقعد نتكلم.

استقبلهما الجارسون بالترحاب وبدا أنه يعرف دكتور آدم وقادهما إلى طاولة مجهزة لفردين، طلب آدم فنجانين من الكاكاو.

كانت رحمة مرتبكة من الموقف؛ فبالرغم من ديناميكيتها في التعامل مع الأشخاص على اختلافهم في مجال عملها..

إلا أنها شعرت بعدم ارتياح في الجلسة.

تكلم آدم فقال:

- أعلم أن دعوتي لكِ قد تبدو غريبة، خاصة أنك لا تعرفين عنِّي سوى أني الأستاذ الغريب الأطوار بالغليون..

ابتسمت بخجل فسارع يكمل: لي آذان أسمع بها ما يقال يا رحمة، لا داعي للخجل.

السؤال الذي يتردد بداخلك أراه يواجهني، تسأله عيناك..

(ماذا تريد مني؟) صح؟

هزت رأسها موافقة، وتكلمت بصوت بدا منخفضًا وسرعان ما عاود قوته وأصبحت نبرته واضحة:

- لقد تعاملت معي اليوم بحدة واتهمتني بعدم الجدية والإهمال، وبعدها اعتذرت وأبديت قلقك على اختفائي، وبعدها انتظرتني بجوار السيارة، وها نحن جالسان معًا نحتسي الكاكاو..

كمٌّ من الأحداث الغريبة ليوم واحد بالنسبة لأي شخص.. ألا تظن هذا!!

أشعل غليونه فسرت في الجو رائحة التبغ، كانت غريبة لكنها محببة على غير ما توقعت.

بدأ يتحدث بهدوءٍ:

- أنا الابن الوحيد لأب مصري وأم مصرية كندية..

جدتي لأمي كانت عالمة آثار كندية، جت مصر وهي شابة ضمن حملة تنقيب عن آثار في منطقة دهشور، وفي رحلة لأسوان قابلت جدي أبو أمي وكان مهندس من المهندسين اللى اشتركوا في بناء السد العالي، اتعرفت عليه وحصل بينهم إعجاب انتهى بالزواج وإنجاب أمي.. وبعد فترة عادوا للقاهرة حيث عاشت أمي حياتها، تعلمت في مدرسة رمسيس كوليدج وتخرجت منها والتحقت بالجامعة الأمريكية حيث درست الأدب الإنجليزي، وهناك التقت بوالدي حيث كان يدرس هندسة البترول في ذات الجامعة. لن أطيل..

حدث إعجاب تطور إلى حب أعقبه زواج وإنجاب طفلة لم يكتب لها الحياة بعد سن الثالثة لمرض ڤيروسي أصابها، وبعد وفاتها بعامين جئت أنا للدنيا لأصبح معقد آمال الجميع..

درست في مدارس بورسعيد بالزمالك، وكانت اهتماماتي أدبية فنية..

لاحظت أمي حبي للرسم وشجعتني بكل طاقتها وبرضا الوالد أيضًا..

نسكن حي الزمالك حيث نشأت بين شوارعها، أنهيتُ دراستي الثانوية بمعدل جيد وبعدها التحقت بكلية الفنون الجميلة، اتخرجت بتقدير امتياز واشتغلت معيد.. وساعتها قابلت نشوى، أجمل من رأيت من فتيات الكلية آنَ ذاكٍ..

كانت طالبة في آخر سنة، وكان فيه مشاعر وقررت أرتبط بيها، وكنت بحضر أوراقي للسفر لكندا عشان أعمل الماجستير على لما تخلص هي دراسة وساعتها نقرر الدنيا يحصل فيها إيه..

فوجئت بعد سفري بسنة، وبدون أي مقدمات، إنها بتنهي أي ارتباط بيننا وإن كل شيء نصيب. عرفت بعدها من بعض الزملاء إنها ارتبطت بطبيب جراح من أقاربها جاهز ومش ناقصه حاجة..

فقررت إني أكمل بَرَّه. خلصت الماجستير والدكتوراه وبقيت مدرس في جامعة ألبرتا بمقاطعة إدمنتون في أقصى الشمال، تقدري تقولي أبرد مكان على الأرض، بس جميل وهادي وطبيعة خلابة، سحرني المكان، والدراسة والشغل أخدوني من حياتي الاجتماعية لفترة.. وبعدها جتلي دعوة من الكلية هنا أكون أستاذ زائر، رحبت بالفكرة طبعًا عشان أبقى قريب من الوالد..

ورجعت أشوف الدنيا ممكن تمشي إزاي خصوصًا بوجود منغص أساسي لوالدي، بعد وفاة أمي تفاقم شعور الوالد بالوحدة..

وأصبح في حاجة لوجود أسرة وأحفاد، وأنا كمان محتاج لزوجة ورفيقة درب.

هي دي حكايتي من أولها لحد ما بشرب معاكي الكاكاو دلوقتي.

تكلمت رحمة:

- لحد هنا الحكاية جميلة، بس مافهمتش برضو أنا مالي بالقصة وإيه سبب انفعالك والحدة اللي كلمتني بيها!

آدم بعد لحظات من الصمت:

- أنا مكنش قصدى أبدًا أحتد عليكي، أنا من ساعة ما دخلت المرسم وشفتك أول مرة وأنا حاسس إن فيه شيء بيشدني ليكي.

هدوئك الخارجي برغم لمحة الثورة الواضحة داخل هاتين العينين اللوزيتين.

طريقة ضغطك لأنابيب الألوان، واستخدام ظهر إيدك أحيانًا ك "بالتة ألوان".. أحيانًا كنت بشوف لمحات من ألم تسكبه روحك بداخل اللوحة وأنت تزفرين أنفاسًا تطلقينها حاملة همومك بعيدًا مع رفرفات أجنحة حماماتك الراحلة بعيدًا عن أبراج أعشاشها..

أنا يا رحمة حسِّيت أدّ إيه أنا محتاج لك من غير ما أتكلم معاكي..

من أول مرة سمحتيلي أقعد معاكي بدون سابق كلام، خُفت أرفع راسي تعرفي من عنيا اللي جوايا..

جواكي حالة شدتني وكانت بتزيد يوم بعد يوم، كانت بتخوفني لأن طول حياتي برَّه مصر..كنت مقرر إني مش هاحتاج لمخلوق يكمل الناقص جوايا..

وظهرتي إنتي بخطوات هادية زي خطوات القطط ومن غير ما تقصدي اتسحبَّتي ودخلتي جوايا، فين ما أدَّوَّر أشوفك..

ولما اختفيتي فجأة حسِّيت إن جوايا صقيع جمِّد كل عروقي، مش عارف أفكر، طيب أوصلِّك إزاي؟

ممكن جدًّا إنك ترفضيني، بس على الأقل كان هيبقى قدامي فرصة أقدِّم لك نفسي صح غير الصورة اللي الباقيين واخدينها عني، وأعتقد إنك إنتي كمان شايفاني البني آدم الغريب الأطوار صاحب الغليون.

أتم كلماته وأشعل غليونه وزفر منه بضعة أنفاس.

رحلت رحمة مع دخان الغليون إلى الزمن البعيد البعيد..

ولسان قلبها يهتف بداخلها: "إياكِ يا رحمة، فلتخمدي دقات قلبكِ التعس، لن يحتمل سقطة أخرى!

أما اكتفيتِ يا فتاة من جروح القلب وويلات شقائه، ألم تقسمي له ألا تمزقيه على أعتاب قصة أخرى؟

لقد كفرتِ بالحب يومًا، وأغلقتِ هذا الباب للأبد، فلِمَ الردة الآن؟"

أخيرًا واجهته بنظراتها..

تحدثت قائلة:

- دكتور آدم، لم أعد أثق بما يطلق عليه الحب، بالرغم من أني بنت طبيعية وعاطفية لأبعد مدى، بس عارفة برضو إن الحب اللي بتحكي عنه القصص وبنشوفه في الأفلام ما هو إلا وهم بنتمناه ونحلم بيه..

هو عبارة عن..

طاقة متوهجة، لحظات محسوبة بدقة، تبدأ مشتعلة حارقة تضرم اللهب في من امتزج بها، ثم لا يبقى منها سوى سواد الركام يلوث من يقترب منه..

فلنتحدث كبالغين بينهما كوبان من الكاكاو الساخن..

ولنسمي الأشياء بأسمائها..

أنت تريد رفيقًا لوحدتك وأملًا لوالدك بعائلة تؤنسه ويسعد بالتفاف بعض الأحفاد من حوله..

يشترط في الرفيق بضعة شروط صادف أن لمحت بعضها في شخصي..

أليس هذا صحيحًا؟

رد عليها متعجبًا:

- تلك ناحية منكِ لم أعتقد بوجودها أبدا بداخلكِ، وأنا أزعم أني أجيد الحكم على الأشخاص!

أنتِ الآن تتحدثين بمنطق عقلاني للغاية بالرغم من ثقتي الشديدة أنك تفيضين بالمشاعر من الداخل.. أعتقد أن هناك قصة ما وراء هذا المنطق..

لن أتطفل أبدًا وأسأل.

إن كنتِ وصفت الحال كمعادلة رياضية، فالإجابة إن نحينا المشاعر جانبًا فقد أصبت الوصف، وبالرغم من عدم اقتناعي من أن هذه هي شخصية رحمة الرسامة التي تشتعل في أناملها الأحاسيس فتطلقها صارخة في لوحاتها.

أنا معجب بكِ يا آنسة رحمة وأتمنى أن تفسحي لي مجالًا لأتعرف على رحمة، تلك الشخصية التي شدت روحي إليها دون كلمة واحدة.

ردت الجالسة أمامه:

- أنا رحمة وبس، أي كلام هقوله هيبقى مجرد كلام يحتمل الصح أو الخطأ لحين ما تتأكد منه..

رحمة اللي بتشوفها وهي بترسم وهي بتتعامل مع الناس وبقية مخلوقات ربنا هي نفسها رحمة اللي بتجهد نفسها إلى آخر حد عشان تؤدي عملها على أكمل وجه لمنع أي كلمة لوم على أقل تقصير منها..

هي رحمة اللي روحها حرة ومش مسموح لأي حد يكبل الروح دي بأي قيد ولو كان من حرير.

الحب بالنسبة لي اتفاق بين شخصين على أسس جميلة محترمة، قواعدها هي المساواة التامة بين الاتنين في الحقوق والواجبات الإنسانية والعواطف والرغبات، الاحترام المتبادل، تقدير كل منهم للآخر في جميع الأعمال، ووجود مساحة خاصة لكل منهم دون المساس بكرامة الآخر أو احترامه. الخيانة والكذب هما الأساس الأول لفسخ الاتفاق دون الرجوع للآخر.

TAKE It OR LIVE IT.

ودلوقتي دكتور آدم تسمحلي أستأذن عشان اتأخرت عن معادي ف البيت، وشكرًا على الكاكاو، حقيقي كان رائع.

كانت تتحدث وكل خلجة من خلجاتها ترتجف، أسرعت إلى خارج المكان، وصلت إلى سيارتها، ألقت نفسها بداخلها، وقادت باتجاه المنزل بالعجوزة.. لكنها اتخذت منحنى في الطريق قادها إلى النيل.

صفت السيارة بالرغم من برودة الجو، فتحت زجاج الأبواب كله، كانت ترتجف وجسدها يشتعل من سخونة الموقف.

"لا بُدَّ أن أهدأ قبل العودة كي لا يلاحظ أحد ما بي."

فتحت باب السيارة واقتربت من الحاجز الأسمنتي تطل على مياه النيل المعتمة الهادئة.

وبداخل النفس تتساءل: "ما الذي فعلتِه؟ مَن كانت تلك الجالسة هناك؟

أي جنون تفوهتِ به أيتها الغبية؟ إنه يعجبك لدرجة الألم، لِمَ تصرفت كأنك إنسان آلي بلا أي إحساس؟

كم تشوقت للسلام عليه باليد!

لكن لا!!

كان لا بد من رسم شخصية قوية. لعنة الله عليكِ يا رحمة! تمتمت بها وتابعت:

لن يتطلع في وجهك مرة أخرى أيتها البلهاء القوية!"

صدر من داخلها صدى صوت تعرفه جيدًا، إنها تلك الروح التي طالما خدعتها مشاعرها، وعانت قهر المحيطين بها على مر سنوات عمرها..

أنتِ الآن رحمة الحقيقية، إياكِ والتراجع، حان الآوان يا فتاة لكي تحيي الحياة التي تستحقينها، لكِ أنتِ فقط الاختيار..

خبئي ما بداخلكِ من أحاسيس، فما هي إلا إقرار منك بالضعف والتسليم لمن يقهر روحكِ.

مكثت قرابة الساعة إلى أن شق هدوء المكان رناتٌ تعرفها، إنها أمها تطمئن عليها..

ردت:

- راجعة خلاص يا ماما، أنا جنب نعمة بتاع الفول والطعمية، أجيبلك حاجة معايا؟

أغلقت الموبايل وركبت السيارة وعادت إلى البيت وبداخلها كمٌّ من الاضطرابات لم تعهدها في نفسها من قبل.

****

مرت الأيام هادئة ما بين العمل في الشركة وتشجيع رؤسائها..

والذهاب إلى المرسم كالمعتاد تتنفس الصعداء وترحل مع أعمالها.

كانت نظراتها تتلاقى مع الدكتور آدم فتبادله ابتسامة لطيفة كأن لم يكن بينهما ما كان من حديث.

توطدت علاقتها بزملائها في المرسم وبخاصة صفا طالبة الطب التي لا تجد نفسها في دراستها.

ذات مساء بعد مرور حوالي شهر على ما دار بينهما من حوار في المقهى،

وجدته يقترب ليلقي نظرة على لوحتها، أمعن النظر ثم اقترب منها هامسًا:

- أستاذة رحمة، ممكن تحدديلي موعد مع السيد الوالد لأمر خاص؟

خفضت عينيها وابتسامة خجولة ارتسمت على الوجه الهادئ وإيماءة بالموافقة بدت واضحة، دار على عقبيه تاركًا إياها ساكنة كالتمثال.

عادت يومها إلى المنزل تسير بأطراف لا تلامس الأرض، إنها في كونٍ آخر.

لقد أعجبها لحظة أن رأته، لكنها كانت قد وضعت أحاسيسها منذ زمنٍ بداخل شرنقة خانقة وأحكمت إغلاقها.

لن يخدعها كائن من كان تحت شعار الحب مرة أخرى، لكنه سمعها للنهاية وألقت ما بجعبتها كاملًا دون تنقيح، ومع هذا ها هو الآن يطلب تحديد موعد للقاء والدها.

تُرى هل حان موعد رحيل الوحدة؟؟

أهناك أمل في متابعة الطريق بصحبة حبيب؟

دخلت غرفتها تضع عنها ثيابها، لم تلتفت إلى صوت أمها من خلفها:

- اتأخرتِ ليه يا بنتي قلقتيني عليكي؟

انتبهت الأم أن ابنتها في عالمٍ آخر، فربتت على كتفها مما أفزع رحمة فصرخت:

- ماما انتي هنا من إمتى؟

- من كتير يا قلب ماما، إنتي اللي ماكنتيش هنا من أصله!

حملقت الفتاة في وجه أمها وكلمات كثيرة تسعى إلى الخروج من فيها، ابتسمت الأم بحنو وقالت:

- فيكي إيه يا بنتي؟

رحمة:

- ماما في موضوع عاوزة أحكيلك عليه.

جلست الأم على حافة الفراش وأمامها ابنتها التي بدأت تحكي ما بجعبتها بهدوء، لم تذكر جلسة المقهى والاتفاق الذي عقدته بينهاو بين نفسها وألقته على آدم..

إنها حياتها ولا يحق لأي كان التدخل فيها وإن كان أبويها.

ارتباط

سرعان ما أصبح خبر قرب ارتباط رحمة بالدكتور آدم الورداني هو خبر الساعة في البيت.

تغيرات في الأثاث والستائر، لمحات من الفرحة على الوجوه وبخاصة الأم وهنا الأخت الصغرى، مشاعر غيرة مستترة بداخل الأب تظهر بشكل غير مباشر في انفعالات لأسباب واهية.

وأخيراً حان اليوم الموعود.

تلألأت الثريات الكريستال والإضاءات الجانبية، وفاح أثير العود والبخور وساد أرجاء المكان قبل وصول الضيوف. دق جرس الباب واستلمت الخادمة باقة ورد رائعة مرسلة من الدكتور آدم مما أدخل السعادة على قلب رحمة التي بدت كعروس رقيقة بثوبها الأبيض تزينه وردات حمراء أضفت توردًا بسيطًا على وجنتيها.

في الموعد المحدد وصل الدكتور آدم ووالده المهندس عبد المنعم الورداني واستقبلهم والد رحمة المستشار سليم الشرقاوي ووالدتها.

كان اللقاء ودودًا تبادل فيه الرجلان أحاديث مختلفة عن تطورات الأحداث الجارية في البلد وكيف تحولت البلاد إلى الاستهلاك عوضًا عن الإنتاج.

دارت كؤوس العصائر تلتها أكواب الشاي وقطع الجاتوه.

وخرجت رحمة لتقديم التحية والجلوس لبعض الوقت.

وبدأ والد آدم بالديباجة المعتادة في هذه الأحوال، ورد والد رحمة بالترحيب بآدم شخصية محترمة تفخر أي أسرة بوجوده ضمن أفرادها.

واتفق الاثنان على تأجيل الموضوع إلى أن يتم إعلام أفراد الأسرتين على أن تتم الخطبة وتقديم هدية العروس بعد أسبوعين.

وانتهى المجلس بقراءة الفاتحة وسط زغاريد أم وليد المربية وقبلات الأم والأخوين لرحمة.

انصرف الجميع وعاد الهدوء إلى البيت ودخل كل منهم إلى غرفته؛ هنا تحلم بالثوب الذي سترتديه في خطبة أختها، والأم عقلها يفكر بسرعة الصاروخ، الوقت ليس كافيًا لتجهيز خطبة مناسبة..

وحده الأب كان صامتًا يسود بداخله إحساس بعدم الراحة لا يدري سببه..

ربما لأنها أول فرحته والقادم غريب لا يعلم عنه أي شيء..

لكنه رجل محترم من أسرة طيبة يبدو عليهم الرقي والاحترام.

لا يدري ما الذي يقلقه!

أما رحمة فاستلقت على سريرها والذهن شارد في دنيا أخرى، دنيا فراشات ملونة وبلورات زجاجية لامعة ونجمات براقة..

أجل، لقد رحلت بعيدًا.

مرت الفترات اللاحقة بسهولة ويسر.

تمت الخطبة، وبعد عدة شهور أقيم الزفاف، وكانت رحمة أجمل عروس ودكتور آدم الوسيم كان محط أنظار فتيات وسيدات الحفل ما بين مهنئات وحاسدات ومتمنيات السعادة للعروسين.

انتقلت رحمة إلى ڤيلا المهندس عبد المنعم بعد أن تم تجهيز دور كامل خاص بالعروسين، واستقل والد آدم في الدور الأرضي نظرًا لحالته الصحية.

بدأت رحمة حياة جديدة، إنها زوجة لرجل تحبه، بل تعشقه دون أن يدري، إنها بالنسبة إليه رحمة الفتاة الواقعية الرسامة الإنسانة..

سيدة المنزل وزوجة لفنان تشكيلي له دوره في الحياة الفنية خارج مصر وداخلها، حيث كان آدم دائم السفر بين كندا والقاهرة. واستمرت رحمة تعمل في شركة السياحة وحازت على منصب نائب الرئيس لما كان لها من علاقات ممتازة مع الجميع سواء داخل الشركة في المقر الرئيسي في القاهرة أو الفروع في الدول الأجنبية.

ربطت علاقة أبوة رائعة بين رحمة وحماها وأحس منها بالحنية والطيبة والاعتناء به كما لو كان والدها وأكثر.

كان آدم زوجًا مثاليًّا يعلم تمامًا ما عليه من واجبات تجاه زوجته ويؤديها.

لكنه لم يكن الحبيب الذي حلمت به رحمة قط.

أين تلك اللمسات التي طالما تمنتها لمن سوف تهبه الروح والجسد؟ أين الدفء في اللقاء والحميمية في الامتزاج؟

إنها تحمل بداخلها نيرانًا مشتعلة طمرتها تحت قشرة صنعتها بنفسها مخافة الجرح والألم.

لكنها حاولت البوح بما يجتاحها من شوق ورغبة تجاهه دون أن تجد ما يقابلها من صدى من ناحيته.

كانت تتساءل حين يضمها إليه: ألا يشعر بحبها أم أنه يؤدي دور الزوج المفروض عليه لإكمال الصورة؟

مرت سنوات والحال تسير على نفس الوتيرة.

لم ينغص على رحمة سوى تساؤلات والديها وحماها عن تأخر وصول الحفيد أو الحفيدة المنتظرة.

كانت ترد دائمًا أنه لم يأن الأوان بسبب طبيعة عمل آدم وعدم استقراره في مكان واحد.

ولكن بداخلها كان السؤال منغصًا داخليًّا حقيقيًّا. كم من المرات فتحت الموضوع مع آدم وكم من المرات تهرَّب من الإجابة بجواب غير مقنع.

مش وقته، لسه بدري، الأولاد مسؤولية لست على استعداد لها، إنتي هتلاحقي على شغلك ولا بابا ولا أنا وسفري ولا مسؤولية أطفال..

هناك شيء ما تشعر به لكنها لا تستطيع الجزم بشيء واضح.

ولكن كان القرار الجلي الخفي: لا أطفال.

وفجأة حدث ما قلب حياة رحمة رأسًا على عقب.

قرر والدها أن يعود مرة أخرى إلى عمله في الخليج مصطحبًا الأم وأختها الأصغر (هنا) بعد أن تخرجت من الجامعة لتجد فرصة عمل مناسبة إلى أن يأتي صاحب النصيب، وفي نفس الوقت ليحصل (عصام) الأخ الأصغر على الثانوية الأمريكية ويتابع دراسته في الخارج. كيف لها أن تُشعرهم بفداحة مصابها بسفرهم!

كانت تحتفظ دائمًا بأسرارها داخل جدران غرفتها، لم تخبر أحدًا قَطّ عن معاناتها ووحدتها.

لقد قررت يومًا أن تعقد اتفاقًا إنسانيًا بينها وبين من سيشاركها حياتها ينص على احتفاظ كل منهما بكامل حريته مع مراعاة عدم المساس بكرامة الآخر واحترامه..

كيف لها أن تعرف أنها وضعت قيودها بيديها وألقت المفتاح؟

آدم شخص محترم خلوق لم يمسسها يومًا ما بإساءة تنال من كرامتها أو حريتها..

كم تمنت أن تكون العاطفة والدفء هما أساس العلاقة فيما بينها وبين آدم، ولا سيما أن ما جمعها به من مشاعر يتخطى بمراحل ما كان بداية متمثلًا في الشغف بالفن والمشاعر الإنسانية.

كان اتفاقها الذي ندمت على إبرامه وأصر هو على الالتزام بنصه، وكانت هذه الحياة.

أسقط في يد رحمة ما الذي يحدث، كيف يمكن أن أحيا دون وجودهم حولي؟

هَنا الأخت الحبيبة فرحة يومها، وعصام الصبي الصغير المرح الذي بدأ يخطو بخطى حثيثة في طريق الشباب، نبت شاربُ أخضر واخشوشن الصوت بسذاجة مقلدًا الرجال.

أمها، أنيسة يومها ورفيقتها. كانت دائمًا تعلم أن أباها غير راضٍ تماما عن طبيعة زواجها وأطلق عليه مزاحًا زواج ترانزيت..

لكنه لم يكن يشير إلى الموضوع أمامها كثيرًا.

كانت الأمال معقودة فيما بينهم، فظروف البلد لم تكن مشجعة، الأعمال الحرة تقفل أبوابها وأسعار العملة في انهيار مقارنة بسائر العملات.

ليس بإمكانها أن تعلن رفضها لسفرهم، أو حتى ألمها.

كانت الإجراءات تسير على قدم وساق والأيام تمر سريعًا، وكان السفر قاب قوسين.

في اليوم المحدد قامت رحمة باصطحاب الأسرة إلى المطار وقلبها تتنازعه الوحشة والقلق..

رسمت ابتسامة مصطنعة على الوجه، كان الجميع يشعر بها ولكنها الحياة.

ودعت أحباءها وعادت والدموع تنساب بلا انقطاع، قادت سيارتها إلى مستودع سرها الدائم، (النيل).

استندت إلى سيارتها مواجهة لصفحته وأخذت تبوح له بوجيعتها من فراق الأحبة وجفاف المشاعر والوحدة، تبوح ويصغي، تلقي إليه بالدمع فيضمه.

عادت إلى ڤيلتها بعد أن هدأت.

رسمت ابتسامة عذبة على الوجه حتى لا تُشعر والد زوجها بآلامها.

كان مدركًا تمامًا لما بها؛ لذا ضمها بين ذراعيه وربت على رأسها بحنو شديد فانفجرت باكية حينها، قال لها بصوت هادئ:

- رحمة إيه رأيك، تيجي نسافر كندا تغيري جو وتشوفي مكان جديد، وتدرسي فن بجد وتاخدي فيه الشهادة اللي كان نفسك تاخديها من زمان.. مش بذمتك فكرة جبارة؟

نظرت إليه من خلال دموعها..

وأومأت أن بلى.

الرحيل

تم الانتهاء من كافة الإجراءات المطلوبة سواء للسفر أو من التصديق على شهادات رحمة الدراسية في جميع المراحل وحتى شهادة التخرج من الجامعة وترجمتها للإنجليزية والفرنسية حسب إجراءات التقديم في جامعات كندا.

كانت الأيام التالية هي أجمل أيام في حياة رحمة بمعنى الكلمة. ما جال بخاطرها قط أن تتسع أبواب السماوات العُلى لتحقيق حلم حياتها بعد أن انطوت سنوات العمر عليه.

اختلفت الحالة النفسية لرحمة بشكل واضح، عاد بريق الأسنان يلمع مع الابتسامة من جديد، وأخذت العلاقة بينها وبين حماها تأخذ شكلًا أقوى، فأصبحت علاقة أب وابنته.

آمال عريضة سكنت فؤادها؛ فبالرغم من عشقها لأرض مصر إلا أن بين جوانب الروح يسكن طائر يحيا في انتظار فرد الجناح والتحليق في سماء الكون.

واجه قرار السفر ترحيبًا حذرًا من آدم، فبداخله كانت رحلاته المكوكية للقاهرة كأستاذ زائر مجهدة ومضيعة لوقته، ولكنه كان مرغمًا لرفض والده مغادرة مصر بعد وفاة الأم.

أما الآن وقد اتخذ الأب قراره بالسفر إلى كندا فقد بدأت الأمور تأخذ منحى آخر..

فالعلاقة الأبوية التي ربطت بين الرجل الكبير ورحمة دفعته لبذل أقصى جهده لإخراجها من حالتها النفسية السيئة، وكان الحل الأمثل السفر للتقريب بينها وبين زوجها.

ففي قرارة نفسه كان يعلم أن إقدام الابن على الزواج لم يكن أكثر من حل لعدم تركه وحيدًا في الڤيلا التي جمعت بينه وبين حبيبته رفيقة عمره.

كم كان الأب يشعر بالأسى على تلك الفتاة الطيبة الرقيقة التي تعاملت معه بحنوٍّ ابنة..

رغم ما كان يشعر به من جفاف خلف الأبواب المغلقة حين يعود الغائب في زيارته الشهرية.

"أين اختفى البريق الذي رأيته في عينيكِ أول مرة يا فتاتي حين كانت روحكِ كفراشة محلقة لا تسعها سماوات الكون من الفرحة؟"

أخذ يتحدث معها عن مقاطعة إدمنتون في الجزء الشمالي من البلاد حيث تقع جامعة ألبرتا أكبر جامعات المنطقة حيث يعمل زوجها..

ووعدها أنها بمجرد الذهاب إلى هناك سيبدأ آدم في إجراءات نقل الجنسية لزوجته حيث إنه وولده يحملان الجنسية الكندية من الأم.

رسم لها حياة كانت تحياها في الخيال عن جمال الطبيعة والثلوج التي تغطي المكان في فصل الشتاء..

وحكى لها عن كالجاري وهى المدينة التي تقع جنوبًا من إدمنتون..

وتعتبر مقصدًا للسياح لاعتدال جوها نسبيًّا عن برودة الشمال.

كانت تستمع إليه وترسم مدينة أحلامها في خيالها..

أجل، ما زال هناك أمل لبداية جديدة في آخر الأمر.

أرض الأحلام

في اليوم الموعود استقلت رحمة مع والد زوجها الطائرة من مطار القاهرة إلى مطار فرانكفورت لمدة خمس ساعات، وبعدها أمضيا حوالي أربع ساعات ترانزيت، ومنها إلى مطار إدمنتون مباشرة في رحلة استغرقت إحدى عشرة ساعة انتهت بالوصول إلى إدمنتون، كندا.

إرهاق الرحلة الشديد لم يمنع شعور الإثارة والسعادة بداخل قلب رحمة. لقد سافرت نحو نصف الكرة الأرضية لسبب ما، حتمًا هناك أمل ما مخبأ في إحدى تلك الزوايا الثلجية المحيطة بالمكان.

استقبلهما آدم محييًا الوالد بعناق وضمها إليه واضعًا قبلة دافئة على جبينها ووجنتها.

واستقلوا جميعًا سيارته اللاند كروزر متوجهين إلى منزله الواقع في منطقة ساوث جيت.

رأت بيتها الجديد للمرة الأولى، فلم يسبق لآدم أن عرض عليها ما يشير إلى حياته حتى بالصور.

ما أجمله!

بيت كبير أبيض تحيط به حديقة غمرتها الثلوج، محاط بسياج خشبي رمادي متوسط الطول.

في المدخل ممشى مؤدي إلى البيت، قال آدم إنه منذ الصباح الباكر قام بإزالة الثلوج المتساقطة من ليلة البارحة حتى لا تنزلق قدم أحدهما أثناء الدخول.

فتح الباب عن مكان مؤثث بعناية على الطراز الكلاسيكي، ساد الدفء في الأجساد بمجرد الدخول إلى داخل المنزل، ألوان مشرقة، ستائر من الدانتيل الأبيض الرقيق، غرفة جلوس على الطراز الأمريكي من القماش الأبيض تفترشها وردات زرقاء مطبوعة على نحو رائع، قطع من السجاد الصغيرة متناثرة تماشي ألوان المكان بصورة ملحوظة.

زادها جمالًا انعكاسُ لمعان الأرضيات الخشبية والدرج الخشبي.

تجولت أنحاء المكان إلى المطبخ، مساحة كبيرة مفتوحة مؤثثة بكافة الأجهزة الحديثة، منظم غاية في التنظيم.

في المنتصف مائدة طعام صغيرة لأربعة كراسي فقط، عليها أربع قواعد لوضع الأطباق وفي المنتصف مزهرية بها بعض عيدان الورد المجفف.

ساد بداخلها إحساس غريب بانقباض الصدر دونما سبب واضح.

صعدت الدرج إلى أعلى، استقبلتها ردهة تتوسط غرفة النوم الرئيسية وغرفة أخرى للضيوف.

دخلت الغرفة المخصصة لها مع زوجها..

منسقة برقة من اختيار ألوان الأثاث والمفروشات، وركن للقراءة يحوي كرسيًّا هزازًا، إلى جواره مصباح يرقد على طاولة ملقى عليها بعض المجلات والدوريات الشهرية.

هناك إحساس ما يتفاقم بداخلها لكنها لم تشِر إلى ما يعتمل في صدرها حتى لا تئد الفرحة بداخل والد زوجها الذي تكبد كل هذا العناء ليدفع بها إلى حياة جديدة وآمال مشرقة.

غربة أم اغتراب

خلال الأيام التي تلت وصولها مع حماها إلى كندا حاول آدم أقصى جهده ليشعرهما بالراحة قدر استطاعته.

اصطحبهما للأسواق لشراء المعاطف الثقيلة المسماة "الباركا" للخروج في مثل هذا الجو مع قفازات وأحذية مناسبة، وبدأ في التجول بهما بداخل المدينة مصطحبًا معه خريطة للإشارة للأماكن المهمة من أسواق ومواقف الباصات ومواعيدها واتجاهاتها.

كان يعلم أن رحمة ستحتاج إلى التحرك برفقة والده أثناء انشغاله بالعمل.

أيضًا باعتبارها طالبة في الجامعة، فقد أرسل له الوالد الأوراق المطلوبة ليبدأ في إجراءات إلحاقها بالجامعة لدراسة الفنون التشكيلية.

خلال فترة لا تتجاوز الأسبوعين أصبحت رحمة على أتم الاستعداد للتنقل بداخل إدمنتون كأحد السكان الأصليين للمكان.

في الأسبوع الأول تعرفت على بعض جيرانها حين جاءوا في بادرة جميلة

للتعرف على القادمين الجدد حاملين أطباقًا من الحلوى والمأكولات.

بدأت الحياة تخفف من وطأة الغربة عن البلد والأهل في نفسها، ولا سيما أن والد آدم كان بالفعل بحنانه والدًا لها هي الأخرى.

أما علاقتها بآدم فكانت تسير على ما يرام كزوج وزوجة، لا شيء غير طبيعي..

إلا الإحساس الذي ينمو بداخلها يومًا بعد يوم.

لم نتعارف كما يجب، مجرد شرارة إعجاب لم يكن لها أساس تستند إليه، لا تعلم لِمَ غريب الأطوار ذو الغليون..

كانت تستمع إلى حوارات الأب والأم أنها تكبر ملتهية بعملها الذي يلتهم أغلب أيامها ودروس الرسم التي تعلقت بها دون مبرر.

متى ستدرك أن العمر سيتسرب من بين أيامها كتسرب الماء من الكف.

بدأت الخالات والعمات في القيام بدور الخاطبة.

اليوم زيارة للدكتور الفلاني وغدًا للمهندس العلاني.

والأم تضغط: يلَّا تعالي اقعدي بس واتعرفي على الناس، مش يمكن يعجبوكي؟

لا وألف لا، لن تُعرض في السوق في انتظار الشاري.

لن تحيا حياة الأم والخالة والعمة وطنط فلانة وأبلة علانة.

ستختار هي حياتها بنفسها، سوف تغرس أزهار حديقتها المنتظرة بعد انتقاء بذورها بعناية، وستضع ألوان جدرانها كما يحلو لها. لا بُدَّ أن يكون شريكها على نفس درجة الوعي، لن تكبلني قيود اللازم والمفروض.

لقد خُدعتُ يومًا حين تعاملت بقلبي، ولكني لن أنحي رغباتي وأحلامي عن حيِّز اختياري لحياتي القادمة.

ها قد اخترتِ يا رحمة من تخيلت أنه فارسك الفنان. أحقًّا تعرفين من هو؟

ربما جذبك إليه غموضه، وربما كلمات قالها لك لحظة شغف.

مَن هو يا رحمة؟ مَن هو حقيقة؟

حين دخلت البيت أول مرة أحست أن هناك من وضعت لمساتها في كل ركن، من تركت عطرها متغلغلًا في المفروشات، من عاشت هناك قبلًا.

كانت تتجول وتعلم أنه يتحاشى النظر إليها.

لم ينسَ شرطها يوم عرضت عليه عرضها.. الخيانة والكذب أساس فصم الاتفاق.

ولم تنسَ أيضًا أنها أسمت ما بينهما اتفاقًا.

أجل يا رحمة، كان اتفاقًا، لم تكن علاقة حب وزواج.

فلنكمل اتفاقنا، ولنسمه اتفاقية حياة، أنتِ لم تشترطي في البنود العشق والغرام، أنت من أحببتِ ورفضتِ الاعتراف بحبكِ حتى لا يكون نقطة ضعفك في العلاقة.

أنت لا تعلمين يقينًا إن كانت هناك من تتربع بداخل قلبه ومتى كانت.

ها هي الأيام تفتح لك أبواب أحلامك مع رجل تحبينه ووالد هو الحنان بعينه ومستقبل مبشر ما رأيته قبلًا في أحلامك، فانعمي يا فتاة بالحياة والفرصة، ومن يدري ما يخبئ الغد من مفاجآت.

بمرور الوقت بدأت رحمة في التأقلم بداخل الحياة الجامعية، ساعدها في ذلك لطف زملائها والترحيب الذي قوبلت به من الكثيرين.

انهمكت في دراستها وكانت محط تقدير أساتذتها.

كما كانت العلاقات مستمرة مع أسرتها، فقد كانت تتراسل مع أخويها ووالديها، وقام الأخوان في أحد الأعوام بزيارتها لحضور احتفالات العام الجديد وامتنع الوالدان لمشقة السفر وطول الرحلة.

بعد أربع سنوات تخرجت رحمة حاملة درجة جامعية في الفنون التشكيلية من جامعة ألبرتا الكندية.

وأصبحت رحمة مواطنة كندية زوجة لأستاذ كندي الجنسية.

وأقام لها حماها احتفالية دعا إليها الأصدقاء والجيران المحيطين.

كانت الأمور كلها على خير ما يرام.

فيما عدا العلاقة بينها وبين آدم، كانا زوجين نموذجيين أمام الجميع، وفي الواقع الفعلي كانا رفيقين في عاصفة ثلجية يسيران معًا ولا يلمح أحدهما الآخر إلا بصعوبة.

يجمعهما فراش واحد وأحيانًا متفرقة جسد واحد بلا وجود لأحد منهما.

هكذا كانت الحياة تحمل مع أيامها مزيجًا من الأحداث، ولكن الحدث الذي اجتاح رحمة وأطاح بها أرضا كان وفاة والدها الثاني والد آدم.

ودفء حياتها ونيس دنياها كما كانت له الابنة الحبيبة التي لم يلدها.

انهارت نفسية رحمة إلى أسوأ حد.

حاول آدم بكل الطرق مساعدتها لتخطي أزمتها في وفاة والده، كان يعلم بداخله أي ظلم تحملته رحمة جراء أنانيته حين لوح لها يومًا بإعجابه ورغبته أن يكملا معًا الطريق، بينما كانت النفس لها خطط أخرى لم تتكشف إلا بعد فوات الأوان.

أدركها والده الطيب الذي كان يجلده بسياط نظراته كلما شهد جفاف العلاقة بينه وبين رحمة وتعنته في موضوع الإنجاب دون سبب مقنع سوى أنانيته وإحساسه برفض تحمل مسؤولية لا يرغب في تحملها بالرغم من عشق رحمة للأطفال، والأغرب قبولها لتلك الحياة لمجرد إحساسها بالمسؤولية تجاهه ومحبتها له كأب في سنواته الأخيرة.

قرر آدم أن العمل هو أنسب حل لإخراج زوجته من محنة الفقد التي تعاني منها.

قام بتحويل غرفة الوالد المطلة على الحديقة إلى مرسم مجهز للأطفال، وكان يعلم مدى حب رحمة للتعامل بالرسم مع الأطفال وبخاصة للأطفال الذين يعانون من مشاكل نفسية نتاج لأوضاع عائلية أو إعاقات بأي شكل من الأشكال.

وبدأ بالإعلان عن المشروع في جميع أنحاء إدمنتون.

كانت تلك الشرارة التي أعادت الحياة بداخل رحمة مرة أخرى.

كان الامتنان والعرفان لآدم لا يقدر بثمن في قلبها.

أجل لم يكن الحبيب، لكن ما فعله دل على رجولة حقيقة.

حقيقة أجمل من الخيال

وجدت رحمة نفسها تحيا من جديد في دنيا من ألوان براقة وأطفال كانت لهم بمثابة الأم والصديقة والمعلمة.

لم تسعد في حياتها يومًا قدر سعادتها أيامها الحالية.

إنها في أواخر الأربعينيات بحيوية فتاة في العشرينيات، تتفجر الحماسة من القلب بوجود هذا الكم من الطفولة الجميلة التي وُجدت في مرسمها.

مبتغاها.

تناولت كل حالة بالدراسة المتخصصة على اختلاف الحالات التي كانت تتواصل معها سواء بالتعامل المباشر أو عبر المراسلة من مختلف أنحاء أمريكا.

لم تكتفِ رحمة بما وصلت إليه من شهرة، بل سعت إلى الدراسة المتخصصة في علاج المشاكل المختلفة للأطفال والمراهقين عن طريق الرسم.

نجحت فيما سعت إليه وأصبحت من كبار المحاضِرات في مختلف جامعات العالم.

تحول المرسم البسيط إلى مركز متخصص من أكبر مركز تقديم الخدمات العلاجية للأطفال والمراهقين أصحاب الاحتياجات الخاصة عبر الرسم وتقنياته المختلفة.

وانتشرت مراكز الرحمة في أنحاء الأمريكتين.

مرت السنوات تسابق بعضها، انفصلت رحمة عن آدم، فكما وجدت هي الدفء في حياتها الجديدة كان الأوان قد حان لكسر القيد الذي أحاطها به منذ البداية. أجل بداخلها كانت تعلم أنها ما كانت إلا فرصة متاحة انطبقت عليها كافة الشروط، لكنه بدوره ساهم في نجاحاتها وربطها بأب لم تكن تحلم أن يحيطها بكل هذا الحنان والدعم.

عاشت رحمة تتنقل بعدها من بلد لآخر، تتابع مراكز الرحمة وتلقي بالمحاضرات وتشارك في احتفاليات الأطفال وإنجازاتهم حول العالم.

أمنية وحيدة تبقت لها..

العودة إلى حبيبها القديم وكاتم أسرارها..

(النيل)

مصر، كم أشتاق إليكِ!

كانت تفكر في إقامة أحد المراكز في القاهرة لتقدم علمها ونفعها للأطفال المحتاجين إلى هذا النوع من المساعدة.

حاولت أن تراسل القائمين على الأمر في الجهاز الحكومي إلا أن مساعيها باءت بالفشل.

إلى أن وصلها يومًا خطاب من مالك العقار الذي كان مقرًّا للأسرة يومًا ما..

يخبرها أنه لم يستطع التواصل مع أخويها لإخبارهما بالأمر لعدم معرفة مقارٍّ إقاماتهما بعد وفاة الأب والأم..

وأن عليها العودة لتوقيع إقرار الموافقة بالهدم.

عندها عرفت أنه حان أوان العودة، ليس فقط لتوقيع قرار الهدم..

وإنما هو موعد محدد للبناء من جديد.

ها أنتِ يا رحمة عجوز في العقد السادس تبدئين العمل من جديد.

دائمًا هناك من هم بحاجة إليك.

أبدًا.....

لن تنتهي الرسالة.

تمَّت